بحث عام | قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية | 07 نوفمبر 2017

التأويليـــة البرغماتيـــة
فقر اللسانيين ووهم المعرفة

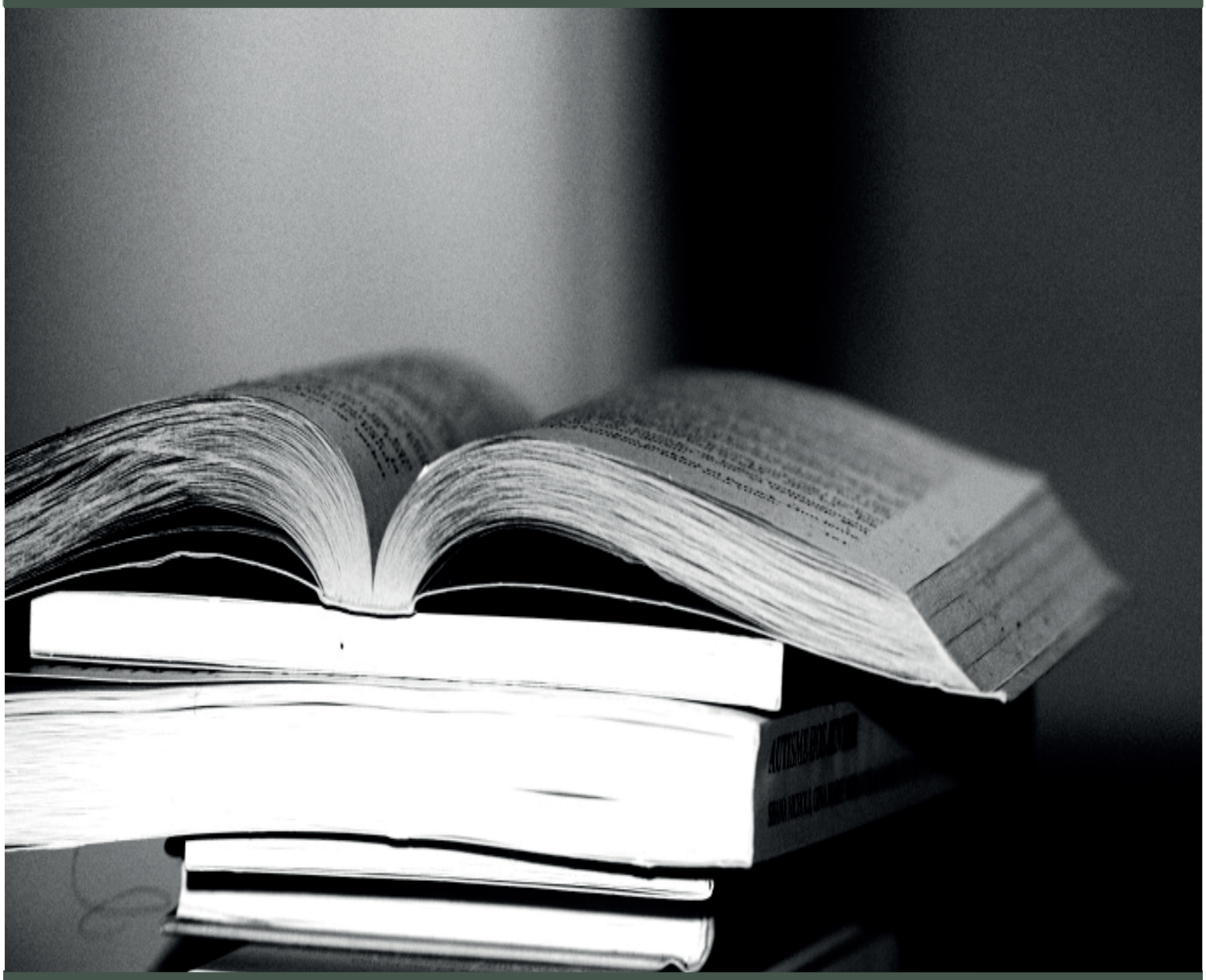

سفيان البطل
باحث مغربي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2017
All rights reserved © 2017

الملخص:

تنطلق هذه الدراسة من فكرة تستدعي ضرورة إعادة معالجة بعض التصوُّرات النظريَّة حول البراغماتيَّة. ونحن بهذا نسلط الضوء على جوانب النقد اللساني للبراغماتيَّة موضحين مكمن الضعف والخلل في هذه الانتقادات، نظراً لأنَّها لا تروم تجاوز فكرة المزاج، ولأنَّ المزاج ليس من دواعي التعقل، فإنَّ عمل وحدة الفرد ستكون ذات صبغة استنتاجيَّة لا أكثر، مكسوة ببنية ما، تمهّد له نظرة للواقع المعاش أكثر انسياقاً مع العاطفة. ومن هنا نسجّل ضعف القاعدة التي يرتكز عليها بعض الباحثين التي تفتقر إلى الفكر النقدي وأسسه المبنيَّة على العلم والخبرة.

لذلك كنَّا في بحثنا هذا المعنون بـ: «التأويليَّة البراغماتيَّة فقر اللسانيّين ووهم المعرفة»، لا نهتمُّ إلا بالقيمة العلميَّة والأخلاقيَّة وتجريد الفكر من الذاتيَّة، راجين الموضوعيَّة في العمل والأداء. وقد انطلقنا في صياغة هذا البحث من **إعادة هيكلة الفكر البراغماتي والوقوف على حدود من التصوُّر**، على اعتبار أنَّ الحقيقة قفزة نحو....، أو تجدُّد على الدوام عن طريق استثمار مجموعة من الأدوات الذرائعيَّة والاختبارات من أجل نقطة الانطلاق لمساءلة الحقيقة كبداهة، إلى محاولة **إعفاء الفكر البراغماتي من كلّ تأويل إيديولوجي** لا يرتقي إلى مقام القول في الموضوع، بحيث يكون طلب العلم والحقيقة لذاتها من ذاتها لا لحاجة في النفس بغية الإشباع. فالعارف هو من يمكن أن يستشفَّ أفق كلّ مبحث من جهة ممكناته غير المكتشفة، وليس الاكتفاء بالرصيد المتواتر والمتوارث القول عليه، المشبع بأثقال دفعت بالبعض إلى الكتابة في أوهام المثقفين. ومن هنا كان مستجد بحثنا الحديث **عن آفاق البراغماتيَّة**، متجاوزين كلَّ خلفيَّة من شأنها أن تقصر العمل على المزاج فقط، بل إنَّنا سعينا في الاجتهاد من أجل الإحاطة بأفق الفكر الذي نهتمُّ به من جهة طبيعة القضايا التي يطرحها بالمحيط الاجتماعي والثقافي وغيرهما، واستكشاف أفق الممكنات التي قد تتجاوز بنا حدود الوهم بالقول من غير تعطيل والإثبات من غير نفي. من ثمَّة كان على الإدراك أن يعي لزوماً أنَّ البراغماتيَّة لا تتعلق بتعطيل أو فصل أخلاقي أو سياسي، بل إنَّها تؤدي إلى تعزيز النشاط، حيث على كلّ فرد أن يفعل ما في وسعه لتعزيز مجتمع شامل على الصعيد العالمي من منظور حضارته.

خلاصة القول: إذا كان الواقع غير مبالٍ بأوصافنا، فإنَّ ذاتنا الإنسانيَّة هي التي تعمل على إنتاج خطاب يقرُّ بإثبات أو تعطيل أو إحالة. ومن هنا كانت حاجتنا في الوحدة الإنسانيَّة، من حيث هي منتوج للتسامح والاختلاف والتشجيع على التنوُّع، وهذا هو ما انتهى بنا في صفحات البحث إلى القول بالمشاركة في الانفتاح.

*****

يقول الفيلسوف الإغريقي **إبيكتيتوس Epictetus: «لا تكن مندفعاً خارجاً عن موطئ قدميك بانطباع شديد، لكن قل: الانطباع، انتظر قليلاً، دعني لأرى ماذا أنت، وماذا تقدّم، دعني لأقوم باختبارك»**.[1]

تقديم

لقد آثرنا جعل عنوان مقالنا هذا: «**التأويليَّة البراغماتيَّة فقر اللسانيّين ووهم المعرفة**»، بغية إثارة النقاش الذي مداره حول مجموع الانتقادات الموجَّهة إلى هذا المذهب من قبل بعض اللسانيّين في دروسهم التي تشي بالطبيعة الاعتباطيَّة في تعاملهم مع هذا الفكر بعيداً عن موضوعاته التي يتأسَّس عليها، وبعيداً عن أبعاده الاجتماعيَّة والإنسانيَّة والأخلاقيَّة ...، ولذلك فإنَّنا من خلال هذه الدراسة سنعالج فكرة تستدعي ضرورة إعادة معالجة بعض التصوُّرات النظريَّة حول البراغماتيَّة من حيث تمَّ انتقادها.

وبلغة أخرى أكثر تبسيطاً؛ إنَّنا نودُّ تسليط الأضواء على بعض جوانب النقد اللساني للبراغماتيَّة وتوضيح مكمن الضعف في هذه الانتقادات، نظراً لأنَّها لا تروم تجاوز فكرة المزاج التي سبق وتحدَّث عنها وليام جيمس في «**البراغماتيَّة**»، حيث يعتبر تاريخ الفلسفة هو تاريخ صدام الأفكار، وانطلاقاً من رؤيته هاته سيسعى لتفسير أسبابه التي مردُّها إلى منزلة «المزاج» بكل اختصار، أو كما يقول: «وأيَّاً يكن مزاج الفيلسوف المحترف، فإنَّه يحاول عندما يتفلسف أن يواري حقيقة مزاجه ويسترها»[2]، وبما أنَّ المزاج ليس من دواعي التعقل فإنَّ عمل أو جدَّة فيلسوف ما بهذا الشكل ستكون ذات صبغة استنتاجيَّة لا أكثر، يكسوها ببنية ما، تمهد له نظرة للكون/ الواقع المعاش أكثر انسياقاً مع العاطفة، «إنَّه يعوّل على مزاجه ويثق به. ولكونه يريد عالماً يتفق ومزاجه، فهو مؤمن بأيّ تمثيل للكون يتفق معه فعلاً».[3] لهذا المكمن الذي يستحق إعادة النظر والتوجيه قرَّرنا تخصيص بحث في هذا الموضوع انطلاقاً من قراءتنا لبعض الأفكار التالية التي نحبُّ أن نشير إلى أنَّها تمثل قاعدة النقد الذي دفعنا إلى الانطلاق ووضع هذه الدراسة بين أيدي الباحثين، حتى نستفيد من كلّ تعديل وتوضيح لزوايا قد نكون أغفلناها:

يقول بعض اللسانيّين «بصيغة المجمل من الحكم»: كمهتم بالمنطق، وفلسفة المنطق، وفلسفة اللغة، يمكن اختصار أفكار وليام جيمس حول مفهوم الحقيقة في:

1 - الحقيقة مطابقة المعنى للواقع.

2 - الحقيقة القيمة مرتبطة بما ينتج عنها (نظرية النتائج).

---

1. Ruggiero (Vincent Ryan), Beyound Feelings, a guide to critical thinking, Ninth Edition, published by McGraw-Hill, New York 2012, page 68.

2. جيمس (وليام)، البراجماتيَّة، ترجمة محمد علي العريان، تقديم زكي نجيب محمود، القاهرة. المركز القومي للترجمة، سنة 2008، الصفحة 19.

3. المرجع السابق، الصفحة 20.

التقليد البراغماتي يرجع أحكام القيمة إلى مصالح فرديَّة أو اجتماعيَّة، وبالتالي من يستفيدون من هذا النموذج يجدونه جيداً. على أنَّ هناك أدبيات كثيرة داخل التيار البراغماتي حول أصل المعايير (بيرس، جيمس، ديوي، رورتي)، وبالتالي تكون السرقة أمراً سيئاً، لأنَّ النظام الاجتماعي تأسَّس على أنَّ كلَّ تحصيل ينبغي أن تقابله مساهمة معينة، وخرق هذه القاعدة هو الذي يصدر الحكم الأخلاقي على السرقة. إلى جانب هذا التصوُّر هناك رؤية إلى أنَّ الفاعل الاجتماعي يعبّر عن حكم قيمة معيَّن، لأنَّه يعني بالنسبة إليه معنى معيناً. **هذا هو كلام المدَّعي**.

رغم أنَّني غير مصدّق لهذا الكلام أنَّه نابع عن رجاحة مفترضة في عقل يعقل، إلا أنَّه يشي أنَّ صاحبه ونحن لا نودّ أن نحيل على أحد كي لا نجرح أحداً أو البعض، ولكنَّنا لا نهتمُّ إلا بالقيمة العلميَّة والأخلاقيَّة وتجريد الفكر من الذاتيَّة الهوجاء نحو طلب الموضوعيَّة العلميَّة والأخلاقيَّة في العمل. لذلك قرَّرنا الخوض في الادعاءات المطروحة، وقابلنا بين العديد من التصوُّرات والأفكار، وانفتحنا على آخر الدراسات فحصاً ودراسة وترجمة ونقداً، وبالتالي انتهينا إلى أمر دعت ضرورة منهجيَّة إلى التطرق إليه؛ وهو توضيح مصداقيَّة الأفكار وسلامة المنهج، وهذا ما آثرناه من خلال طرح تساؤلات مهمَّة تشكّل منهجاً أساسياً في الفكر النقدي السليم وأحد أسسه الداعمة.

بناء على ما سبق، انطلقنا في التساؤل الأوَّل الذي هو: **إلى أيَّة درجة تُعتبر آراؤنا جيدة؟** فأوَّلاً يجب أن نعي أنَّ الآراء ممكنة التكذيب، أو أنَّها قد تكون خاطئة حتى لو بنيت على براهين وحجج قويَّة تدعم ادعاءاتنا، لأنَّ الإشكال الكامن في هذه القضيَّة هو أنَّه لم يتمَّ اكتشاف طريقة لتكذيبها بعدُ، «فالأبحاث أظهرت أنَّ الناس من الممكن أن يكونوا مخطئين حتى عندما يبذلون مجهوداً كبيراً للحكم على القضايا والآراء بموضوعيَّة».[4] من هنا اعتبر سؤال الصحيح أو الخطأ يفترض أن يكون شخصياً أوغير موضوعي، وبحسب هذه الفرضيَّة شاع حديث ما الذي يجعل من افتراض شخص معيَّن صحيحاً بدلاً من افتراضي الشخصي. فعلى سبيل التوضيح؛ إذا كنت تؤمن بسلوك عملي أنَّه لا أخلاقي، وأنا أومن بأنَّه أخلاقي، فحتى لو كان هذا اعتقاد شخص بارز ما فكلانا على صواب، فالذي ينظر إلى المسألة على أنَّها لا أخلاقيَّة هي صحيحة من منظوره الشخصي، تماماً كما هي صحيحة من منظوري أنا باعتقادي أنَّها أخلاقيَّة.

وللخروج من هذا المأزق الذي يبدو كأنَّه يدور بنا في حلقة فارغة، لتكن (الالتزامات، الأهداف، النتائج) معايير يمكننا توظيفها للزيادة من فرصة أن تكون أحكامنا القيميَّة صحيحة.

- الالتزامات: الالتزام هو تقييد للسلوك، يطالب بأن نفعل شيئاً ما أو نتفاداه، وأكثر الالتزامات وضوحاً هي المتفق عليها منهجياً كأنَّها تعاقديَّة.

4. Ruggiero (Vincent Ryan), Beyound Feelings, a guide to critical thinking, Ninth Edition, published by McGraw-Hill, New York 2012, page 61.

- الأهداف: بالمعنى العام الأهداف هي أفكار التميز، أهداف تعود بانسجام عظيم على أنفسنا وفي علاقتنا بغيرنا، وعلى مستوى أخلاقي تعتبر مبادئ محدّدة تساعدنا على الحفاظ على الآخر بالحرص على احترامه.

- النتائج: هي الفائدة، وانسجام نتائج فعل ما يؤثر في الشخص الذي يؤدّي وظيفة ما.

أمَّا سؤالنا الثاني المرتبط بتحديد: **ماذا يعني البرهان؟** لتحديد رأي هو أن تقول للآخرين ما تفكّر فيه حول موضوع ما، ولكن لتقديم دليل هو بأن تعرضه على الآخرين حول ذاك الذي تفكّر فيه إذا كان له معنى، وأن يكون معروضاً (shown) هو أمر أكثر إثارة وجاذبية من أن يكون مخبراً عنه.

تتميز العقليَّة النقديَّة لدى الباحث أو المفكّر من خلال قدرته على تطوير وإعادة فحص قيمة الأدلة قبل أن يعبّر عنها كرأي، وهذا هو ما يشكّل فارق المعرفة التي يمتلكها، لذلك تحتاج هذه المرحلة إلى تقييم للبراهين دون انحياز لتصوُّر معيَّن يرتبط برؤيتنا الفلسفيَّة للحياة أو نظرتنا السياسيَّة للمجتمع. الأمر الذي يدفع بالمقابل إلى البحث في العلامات التي ترصد لنا انحيازاً أو نزعة معيَّنة لا تفيد إلا أن تكون مجرَّد عائق. «عندما تدعم الأدلة مقدمَّة ما، يجب التحلي بالشجاعة لتقبلها، فتغيير طريقة تفكيرك ليست بالأمر الشائن، بينما التمسُّك برأي مغلوط أو خاطئ بعذر الحفاظ على ماء الوجه هذا تصرُّف لا يدلُّ على السذاجة فقط، بل يجعل منك فكرياً شخصاً غير موثوق».[5] بعد التقييم يأتي دور السؤال: **ما الذي يعيِّن لنا دليلاً على أنَّه كافٍ؟** فغالب الناس عندما يضعون حكماً يأخذون بحسبانهم كمَّ الأدلة لملائمة فكرتهم، ونظراً لغياب أيَّة صيغة مبسطة للتقرير في أيَّة مسألة؛ يمكن أن نأخذ بعين الاعتبار الخطوات الثلاث التالية كلحظة مهمَّة جداً للجواب عن إشكال هذا القسم[6]:

- الأدلة كافية عندما يسمح لحكم أن يوجد مع حقيقة، أو أن يكشف لنا حقيقة.

- إذا كانت الحقيقة غير ممكنة البلوغ، الأدلة تكون كافية إذا كانت نظرة واحدة للقضيَّة عرضت لتكون محتملة.

- في كلّ الحالات، الأدلة لا بدَّ أن تعتبر غير كافية.

وأخيراً المرحلة الثالثة من الفكر النقدي عند هذا المستوى من البحث التي اكتفينا بها دارت حول سؤال: **ماهية الحجاج؟** الحجاج هو تبادل للرأي بين شخصين أو أكثر، وهو يبدو على قدر كنقاش رسمي، وهذا

5. «When the evidence supports such a conclusion, have the courage to embrace it. Changing your mind is not di - honorable, but maintaining a false view in order to save face is not only foolish but also intellectually dishonest», Ruggiero (Vincent Ryan), Beyound Feelings, a guide to critical thinking, Ninth Edition, published by McGraw-Hill, New York 2012, page 80.

6. ibid, page 80.

النوع من الحجاج وثيق الصلة بالتفكير النقدي، بمعنى آخر: عبارة الحجاج (تبادل للآراء بين شخصين أو أكثر) هي أكثر من مناسبة لتحدّي أن تصبح مفكراً نقدياً، وبالتالي يصبح الحجاج ذا معنى يرمي إلى «**الحدود المنطقيَّة التي تدعم الحكم**».[7] فتقييم الحجج يستقرُّ ببساطة على: تقييم المقدّمات إن كانت صحيحة أو خاطئة، وبأيّ منطق قادت إلى نتائج صدرت عنها هي صحيحة منطقياً.

خلاصة القول: لقد كان هذا موجزاً حول أهمّ أسس ممارسة التفكير النقدي، الذي هو أيضاً بدوره يمثل إحدى دعائم الفكر النقدي السبع (الفردانيَّة، التفكير النقدي، الحقيقة، المعرفة، الرأي، الأدلة، الحجاج) وقد خصَّصنا لها مقالاً منفرداً أكثر توضيحاً، والآن لنختبر جودة وقيمة «الكلام المفترى» على هذه المستويات التي تدعو إلى ضرورة المراجعة والفحص قبل الحكم.

أولاً: إعادة هيكلة للفكر البراغماتي، والوقوف على حدود من التصوُّر

لا شيء يمكن أن يساعدنا للردّ على الافتراضات الواهية المساقة بغير حكمة وملكة فاهمة «للحقيقة والتطابق» بغير أن نورد مقارنة تطرَّق إليها الباحث الجاد «الذهبي مشروحي» في أطروحته، حيث تناول المسألة من منظوري البراغماتي والواقعي، إذ استهلَّ بقوله:

إنَّ «الحقيقة ليست شيئاً، ولهذا لن تكون صادقة. الحقيقة هي تصوُّر يسند فكرياً محتوى قضوياً للأشياء مثل عبارات أو أقوال أو اعتقادات أو قضايا أو كيانات. إذ من الخطأ الاعتقاد أنَّه إذا أراد أحد أن يفهم تصوُّر الحقيقة فعليه ضرورة أن يسعى إلى اكتشاف الحقائق العامَّة المهمَّة حول العدالة أو أسس الفيزياء. والخطأ يكمن في فكرة أن نظريَّة الحقيقة يجب بكيفيَّة ما أن تخبرنا عمَّا هو صادق على العموم، أو على الأقل تعلمنا كيف نكتشف الحقائق (davidson, RandC, 65)».[8]

وبهذا يدافع رورتي عن فكرة مفادها أنَّه من المستحيل الوقوف خارجياً، أي التطابق بين الفكرة والواقع، ومقارنة فكرنا ولغتنا بالعالم؛ باعتباره السبيل الوحيد لفهم هذا العالم كما يتجلى في الفكر واللغة. فالحديث عن التطابق أو ملائمة الواقع هي مجرّد ادعاءات فقط، وهذا لا يعني أنَّ اللغة والفكر لا يمكنهما وصف شيء يوجد خارجاً عنهما، وذلك لأنَّهما جزء من حياتنا ذاتها.

فالحقيقة بهذا المعنى هي **قفزة نحو**، أو تجدُّد على الدوام عن طريق استثمار مجموعة من الأدوات الذرائعيَّة والاختبارات لكي يتمَّ الشعور بالامتلاء والإحساس بالنجاح، وهذه كلها نقطة الانطلاق لمساءلة الحقيقة كبداهة. ويقول في هذا الإطار: «إنَّ مسألة البداهة لأجل تحقيق التجدُّد الدائم هي ما دفع النزعة

7. ibid, page 83.

8. مشروحي (الذهبي)، أطروحة دكتوراه تحت عنوان: النزعة البراغماتيَّة الجديدة عند رورتي، تحت إشراف محمد سبيلا، جامعة محمد الخامس، كليَّة الآداب والعلوم الإنسانيَّة، الرباط، شعبة الفلسفة وعلم الإجتماع وعلم النفس، وحدة الحداثة وقضايا الإنسان المعاصر، سنة 2004، الصفحة 152.

الواقعيَّة، وهي المرادف للنزعة المضادة للبراغماتيَّة، إلى الظهور ثانية في عقد الثمانينات من القرن العشرين في أوروبا».[9] ورغم أنَّه لهذا الأمر عدَّة أسباب ودواع؛ منها محاولة البراغماتي للبحث عن الإحالة في الواقع ووضع إثباتات محدَّدة، فإنَّ الفيلسوف المضاد للواقعي يجب أن يتخلى عن الحقيقة بالمعنى النظري الخارجي والعودة إلى جون ديوي لاستثمار مفهوم الإقرار بدل الرجوع إلى الحقيقة. وبالتالي دعا رورتي إلى أنَّ البراغماتي يعود دائماً إلى فكرة التطابق ويبرّر محاولات التفسير الفاشل بهذا التطابق على مدى العصور الطويلة. إذن فالبحث عن المعايير للحقيقة هو جزء من محاولة «أعمّ للتفكير في العالم أو الذات البشريَّة باعتبارهما يملكان طبيعة جوهريَّة أو ماهيَّة، أي أنَّهما نتيجة لمحاولة تفضيل لغة واحدة من بين لغات أخرى، اعتدنا أن نصف بها أنفسنا أو العالم».[10]

وهذا يعني أنَّ الواقع يبقى غير مبالٍ بأوصافنا، وأنَّ الذات الإنسانيَّة هي التي تعمل على إنتاج خطاب يقرُّ بإثباتات وإحالات معيَّنة، ممَّا يعني أيضاً أنَّ ريتشارد رورتي يرى «أنَّ الحقيقة لا يمكن أن تكون ما ورائيَّة، ولا يمكن أن توجد باستقلال عن العقل البشري [...]، ولذلك فاعتبار الحقيقة مثل العالم توجد في الماوراء كان ينظر فيه إلى العالم كمخلوق لكائن له لغة خاصة به».[11] هذا كله نابع من قراءة رورتي لتاريخ الفلسفة، وتقسيمه إلى قسمين كبيرين: قسم يمثله إيمانويل كانط الذي ربط الحقيقة من خلال التمثلات وما تمَّ تمثله، وقسم يرتبط بهيغل الذي يطرح كيفيَّة ظهور الأشياء، ولا يبحث عن كيفيَّة ارتباط التمثلات باللَّاتمثلات. وبالتالي يكون الخلاف هنا ليس في تطابق الحقيقة، وإنَّما بين النظر إلى الحقيقة كموضوع أزلي يجب الكشف عنه، وما بين الحقيقة كموضوع مصنوع يتوجَّب على الدوام استبدال تصميم على الأساس.

لقد فقدت نظريَّة تطابق الحقيقة مصداقيتها عند ريتشارد رورتي، لأنَّها تميز بين عالم الماوراء والأفكار وبين العالم الخارجي أو الذات، ممَّا جعلها غارقة في مقاربة تمثليَّة للغة، لأنَّ هذه المقاربة تستعمل لفظ الحقيقة كموضوع، حتى ولو كان موضوع رغبة، فـ«الاعتقاد بأنَّ الواقع واحد يعني أنَّ بعض الأوصاف يمكن أن تصاغ متطابقة مع الواقع أكثر من الأخرى».[12] وهذا يدلُّ على أنَّ الجدل بين المدافعين عن تطابق الحقيقة وبين الذين يرفضونها هو جدل يدلُّ على التحوُّل التدريجي من اسبينوزا إلى كانط ومن كانط إلى هيغل ومن هيغل إلى نتشه، وبين الذين يسعون إلى استرداد ملكة العقل التي تسمح بإدراك هذا العالم. لذلك يؤكّد رورتي أنَّ الفرق بين هؤلاء وأولئك ليس في الاعتقاد بالحقيقة أو عدم الاعتقاد، بل المشكل في لفظ الحقيقة الذي يطلق على شيء يستحق أن يحب أو أن يكون سيئاً. ومنه يفضّل رورتي تفسير محبَّة الحكمة كموقف يتخذه المرء إزاء أخيه الكائن البشري، وليس كموقف إزاء شيء لا إنساني، وهذا يفتح باب حبّ الاستطلاع والتسامح مع وجود مثل هذه الآراء المختلفة.

9. المرجع السابق، الصفحة 153 - 154.
10. المرجع السابق، الصفحة 155.
11. المرجع السابق، الصفحة 156.
12. المرجع السابق، الصفحة 161.

إنَّ الوحدة الإنسانيَّة من هذا المنظور ليست منتوجاً إلا للتسامح مع الاختلافات الشخصيَّة والتشجيع على تنوُّع الآراء، وهذا ما سمَّاه «المشاركة في الانفتاح». يقول الباحث: «هذه الخيارات الأخلاقيَّة والتأويليَّة تدرج فضيلة كلٍّ من سقراط واسبينوزا في قراءة رورتي، حيث تقوم بجمع حبّ الحقيقة بالإقرار بقبول الوقوع في الخطأ، وما يستتبع ذلك من انفتاح على أنَّ نظرتهما للنظام الطبيعي ربَّما تكون خاطئة».[13] وهذا ما خلص إليه أيضاً بالقول: «يتفق رورتي مع دافيدسون في الإقرار بأنَّ الحقيقة إذا كانت هدفاً نستطيع أن نحدّد المسافة التي تفصلنا عنه، ونقرُّ في الوقت ذاته بقابليَّة اعتقاداتنا للخطأ، فإنَّ الحقيقة تستحق أن نتحمَّل العناء من أجل بلوغها بأنَّها لم تعد هدفاً مستحيلاً».[14]

وقبل الختام في هذا المحور نودُّ التذكير بقاعدة أساسيَّة، وهي آخر ما انتهى إليه وليام جيمس في كتابه، عسى أن تثير قريحة في الفكر ليعيد التفكير انطلاقاً منها قبل إصدار أيّ حكم قيمي دون أساس، يقول وليام جيمس: «إنَّ الحق الذي تتضمنه الخبرة المطابقة قد يكون إضافة إيجابيَّة للحقيقة السابقة، وقد يتعين على الأحكام الآتية بعد ذلك أن تتطابق معها. ومع ذلك، فرضياً على الأقل، فربَّما كانت صحيحة من قبل. أمَّا براغماتياً فالحقيقة الفرضيَّة والفعليَّة تعنيان الشيء نفسه، ألا وهو: إمكان إجابة واحدة إذا ما أثير السؤال مرَّة».[15]

ثانياً: إعفاء البراغماتيَّة من إيديولوجيَّة اللسانيّين من كلِّ نقد وتأويل

إنَّ البراغماتيَّة لا تتعلق حسب ناتالي هاينيش Nathalie Heinich بنقد أو تأويل: إنَّ علم الاجتماع يتطلع إلى براغماتيَّة الفن المعاصر بأنَّها وصف لما هو موجود، كلُّ شيء يتعلق بواقع نقوم بتحويله.

إنَّ إنشاء سوسيولوجيَّة براغماتيَّة أو نفعيَّة يتطلب أن نأخذ الأشياء بمعناها الواقعي، أي محاولة ترتيب الأفعال العمليَّة ولا شيء غير هذا، لهذا سنبقى في مستوى مصطلح البراغماتيَّة بدون الدخول في الصراعات والنقاشات القاموسيَّة. يقترح لوك بلوتانسكي Luc Boltanski رفع هذه الصعوبة، فلفظ البراغماتي هو منبثق عن البراغماتيَّة الأمريكيَّة، ويتعلق بالتداوليَّة اللسانيَّة الذي يضع مركز عمله حول الأفعال والمصادر النحويَّة على محك الأوضاع الواقعيَّة التي توجد بشكل عميق غير واضح.[16]

فالبراغما في اللغة اليونانيَّة تعني الفعل، والنزعة البراغماتيَّة التي ليس لها علاقة مسبقاً بالمشترك الدلالي: التشابه الاصطلاحي لا يقدّم أحكاماً مسبقة للتشابه النظري أو الميتودولوجي، إذا كانت النزعة البراغماتيَّة تحدّد منطلقها من اللسانيات التي كانت مبادرتها مع أوستين Austin وسورل Searle وغرايس

13. المرجع السابق، الصفحة 164.

14. المرجع السابق، الصفحة 165.

15. جيمس (وليام)، البراجماتيَّة، ترجمة محمد علي العريان، تقديم زكي نجيب محمود، القاهرة. المركز القومي للترجمة، سنة 2008، ص 475.

16. Yaël kreplak Cécile Lavergne, Les pragmatiques à l'épreuve du pragmatisme. Esquisse d'un « air de famille», Tracés. Revue de Sciences humaines, 15 (2008), page 127.

Grice في إطار نظريَّة أفعال اللغة، فالنزعة البراغماتيَّة بالنسبة إليه تيار فلسفي بعيد عن تعريفه لهذه النقاشات كفلسفة للغة، والمؤسّسون للبراغماتيَّة الحقيقيون هم بيرس Pierce وجيمس james وديوي Dewey.[17]

ولهذا يتَّضح الخلط بين فلسفة تتمركز جذرياً على التجربة التي تعمل على إقصاء الأخطاء الناتجة عن الميتافيزيقا وبين تيار لساني موضوعه اللغة في السياق.[18] لذلك كان شارل موريس الوجه البراغماتي الذرائعي الحامل للمشروع العقلاني الباحث عن تحقيق تركيب بين فلسفة حلقة فيينا وبين النزعة البراغماتيَّة لبيرس بعيداً عن تحقيق نظرة عامَّة، من خلال منظور تاريخ الأفكار، غير قابلة للحساب والتكميل بين الذرائعيَّة أو البراغماتيَّة وبين النزعة الذرائعيَّة أو النزعة البراغماتيَّة، ولهذا الأمر حاولنا بلورة تساؤلات حول مدى مشروعيَّة أن يكون البراغماتي براغماتياً على وجه الخصوص، يعني هذا العمل على البحث الذي يدفعنا إلى الاشتغال على مناهج النزعة البراغماتيَّة وتصوُّراتها التي تؤسّسها.[19]

ثالثاً: تشارل موريس ونظريته الذرائعيَّة Le pragmatisme:

ترتبط النزعة الذرائعيَّة كحركة فلسفيَّة بظهورها في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، ويمكن أن نجد تعبيراً لهذا الانشغال الفكري في تيارين سابقين هما كانط Kant وستيوارت ميل Stuart Mill. لقد حدَّد كانط هذا التصوُّر من خلال البحث عن علاقة النظريَّة بالممارسة وعلاقة هذه الأخيرة بالتوجُّه نحو الإنسان من حيث هو كائن محدود. وأكثر قرباً للتصوُّر البراغماتي النفعي كتيار ستيوارت ميل الذي أعاد الاعتبار لوظائف المنطق في علاقته مع تطوُّر المعارف العلميَّة، وقد أكَّد على دور هذه الوظيفة من أجل البحث عن الحقيقة في العلوم الأخلاقيَّة كما هو الشأن في العلوم الفيزيائيَّة.

نستخلص من هذين التيارين أنَّ المعايير الموضوعيَّة تسمح لنا بتقييم فعاليَّة ونشاط العقل المدعم والمسند بالتجربة التي هي وحدها تمنح الأساس الصارم والصلب لليقين العلمي وقيمة الغايات.[20]

غير أنَّ علاقة المعرفة بالتجربة ليست علاقة بسيطة في النزعة الذرائعيَّة، فهذه الأخيرة من حيث هي نظريَّة في المعرفة تقدّم القضايا المختلفة والمركَّبة، حول المعرفة، والتجربة، والحقيقة، والاعتقاد...، من هنا تمَّ التمييز بين المعرفة غير المباشرة والمعرفة المباشرة التي هي الحقيقة الوحيدة للمعرفة، وفي السياق نفسه، تأكيداً لفكرة كانط حول أنثروبولوجيَّة من وجهة نظر البراغماتيَّة (التي يسميها كانط الواقعيَّة.)[21]

17. ibid, page 128.

18. ibid, page 128.

19. ibid, page 128.

20. Charles Morris, Du pragmatisme à la pragmatique: In Langages, 19e année, n°77, Normand Claudine, Trollez M.-F, 1985 page 75 – 76.

21. ibid, page 76.

لقد عنون وليام جيمس كتابه بـ: البراغماتيَّة الذي ظهر سنة 1907، غير أنَّ مبادئ هذه النزعة قد تمَّ تأسيسها منذ 1878 - 1879 من خلال مقالين أساسيين لـ»بيرس»:

- Comment se fixe la croyance.

- Comment rendre nos idées claires.

ولاختزال المبادئ الأساسيَّة لفلسفة المعرفة هاته، يمكن الإشارة إلى نماذج مختلفة من قبيل المعرفة والاعتقاد والفعل/ العمل والإحالة والتطابق...، وهي كلها تشير إلى صلاحيَّة وملائمة الحقيقة للواقع مع تارسكي Tarski وبيرس، كلُّ ذلك من أجل بناء مجال دلالي يضمُّ المنطق، والسيمونطيقا والبراغماتيَّة (التداول).[22]

البراغماتيَّة تمثل قطاعاً من النظريَّة العلميَّة للعلامات، يتمُّ الاشتغال عليها بدون قطيعة من خلال النزعة الذرائعيَّة، فلسفة العلامة وتطوراتهما السيميائيَّة ومواقفهما من قضايا الاعتقاد والفعل وضبط السلوكات. فبالنسبة إلى شارل موريس Ch. Morris وكارناب Carnap فإنَّنا نجد لديهما مصطلح الذرائعي أو البراغماتي سنة 1937 باعتباره خطوة ثالثة في إطار برنامج تحليل العلامات التي تتعلق بالتقسيم التالي: التركيب والدلالة والتداول. إنَّ التمييز بين هذه العمليات في تحليل اللغة يرجع إلى مصدر حلقة فيينا التي حدَّدت القواعد الخاصة للتلفظات التي لا تخلو من معنى، بعبارة أخرى لا تخلو من التصوُّرات الميتافيريقيَّة، وهو الأمر الذي دفع كارناب إلى تأسيس التركيب المنطقي.[23]

يبدو لنا أنَّ التطوُّر الحالي للذرائعيَّة يرتبط بالوسائل والمباحث التالية: التركيب والسيمونطيقا التي طوَّرها كارناب وآخرون، حيث صارت البراغماتيَّة نظريَّة في الاستعمال المألوف والعادي للعلامات، وهذا أيضاً يتأسَّس في بناء البراغماتيَّة على تحليل الفعل والعمل (بلغة سقراط: المزاولة والأداء)، من هنا كانت ضرورة دراسة العلامة كمدخل لمعرفة التنظيمات الاجتماعيَّة، من حيث هو يضمُّ أو يدلُّ على جسم مشترك من الاعتقادات والاختيارات وأنماط العمل، وهذا ما دفع شارل موريس Ch. Morris إلى التأكيد على دور التحليل الصارم لوظيفة العلامات والاستعمالات الاجتماعيَّة التي تسمح بها، المخاطر منها والاحتمالات الإيجابية التي تمنحها هذه الاستعمالات.[24] ومن هنا تصير البراغماتيَّة حسب تعبير دوليدال (delédalle) فلسفة الديموقراطيَّة.[25]

22. ibid, page 77-78.
23. ibid, page 78.
24. ibid, page 80-82.
25. ibid, page 80.

من هنا تتضح صعوبة توحيد مصطلح البراغماتيَّة لتعدُّد الدراسات عن البراغماتيَّة وعلاقتها بمجال اللسانيات واللغة مع أوستين وسورل وغرايس، هذا بالإضافة إلى النتائج التي توصلوا إليها. وهذا دليل على عدم وجود مرجعيَّة موحدة، بل فقط يتمُّ البحث عن الأسس النظريَّة للنزعة البراغماتيَّة.[26]

إنَّ ما نريد الإشارة إليه على وجه الخصوص هو أنَّ البعد البراغماتي ضرورة تحويل البحث في علاقة البراغماتيَّة من بحث في اللغة وعلومها إلى البحث في دورها في العلوم الإنسانيَّة والاجتماعية، من أجل تطوير نموذج جديد أمام النموذج المهيمن المتمثل في لسانيات تشومسكي Chomsky وعملها على التمييز بين الكفاية والإنجاز، أو بين الكلام واللسان عند دوسوسير من أجل إدراج تصوُّرات جديدة للبراغماتيَّة وموضوعاتها ومناهجها ضدَّ النزعة الصوريَّة وضدَّ النزعة السياقيَّة.[27]

إنَّ فرضيتنا الأولى تتعلق بالانسجام بين فلسفة البراغماتي والبراغماتيَّة، وتتحدَّد في الرفض المشترك للنزعة الصُّوريَّة. فالدوافع التي تظهر في رفض هذه النزعة هي عدم تأمُّلها للتجربة المشتركة كشيء قابل للتحليل وقابل للنسقيَّة من خلال أبنية صوريَّة، وهذا ما قدَّمه فلاسفة البراغماتيَّة جون ديوي وريتشارد رورتي Richard Rorty. فالأوَّل يتعلق بنقده للثنائيَّة الكلاسيكيَّة، والأمر نفسه كذلك بالنسبة إلى رورتي. يتبين لنا أنَّ البراغماتيَّة في التصوُّرات المعاصرة تبحث عن التناقضات، وهو تصوُّر إبستيمولوجي أكثر من كونه منهجيًّا.[28] وهذا ما جعل رؤية النزعة في فلسفة المعرفة، أو كما يمكن تحديدها عند مفكري حلقة فيينا، تضمُّ صيغة الثنائيَّة الكلاسيكيَّة: بين الذات وموضوع المعرفة، بين النظريَّة والتجربة، ثنائيات بدونها لا يمكن للبناء المنطقي الصُّوري أن يكون ضامناً لخاصيتها القبليَّة، هذا هو السبب في تفسير مؤسّسي البراغماتيَّة لهذا الرفض الناشئ عن ثورة ضدَّ النزعة الصُّوريَّة. وهذه هي الأطروحة التي دافع عنها موتو وايت الذي يشترك مع ديوي Dewey وفيبلن Veblen وهولمس Holmes.[29]

وقد هاجم ديوي المنطق الصُّوري، حيث صنَّفه بمصدر الشَّر في الفلسفة، وقد شرح وايت White هذا المنطق كما يلي: «إنَّ تصوُّراته الأوليَّة كانت هيمنتها مع الهيغليَّة الجديدة التي حكمت مقوليًّاً النزعة الصُّورية والنزعة الميكانيكيَّة».[30] من هنا قدَّم هيغل Hegel لجون ديوي John Dewey تصوُّراً للوعي الكلي الشمولي الذي يجمع جميع الأشياء، ويضمن العلاقة بين الوعي الفردي وموضوعات المعرفة.

لقد كان هذا الربط متوقعاً بينهما، أي بين الوعي الفردي وموضوعات المعرفة، أكثر صُوريَّة، إنَّه ضدَّ الفصل بين العقل والموضوع وبين موضوع المعرفة، أي الثنائيَّة التي توجد في نصوصه الأولى عند

26. ibid, page 129 - 130.
27. ibid, page 131.
28. ibid, page 132.
29. ibid, page 133.
30. ibid, page 133.

التجريبيين الإنجليز. من هنا اعتبر جون ديوي أنَّه لا يمكن فهم هذه العلاقة دون التفاعل، أي فهم التجربة في ديناميتها واكتمالها: إذ لا يمكن تصوُّرها من حيث هي إدراك سلبي من خلال الذات العارفة كواقعة محدَّدة وغير قابلة للتغيير. إنَّ كونيَّة النظريات العلميَّة ليست إلا نسبيَّة وعلائقيَّة، وإنَّه من غير المجدي التعليق على الآثار الناتجة عن فلسفة الخبرة، لكن في إطار الإدراك الذي نحن فيه، مؤكداً أنَّه يوجد حسب ديوي استمراريَّة بين موضوعات التجربة الإنسانيَّة الجارية وبين التجربة العلميَّة العالمة.[31]

براغماتياً يمكن رفض النزعة الصوريَّة التي ظهرت في نقد اللغات الصوريَّة واللغات السيميائيَّة الصوريَّة التي تهتم بمسألة الحقيقة المشروطة، ونتذكَّر في هذا الإطار مقاربة مؤسّسي البراغماتيَّة الذين رفضوا التحليل الأحادي المتمركز على قيمة التطابق بين اللغة والحقيقة، ومحاولة كشف لا دونيَّة اللغة كإنجاز، ولكنَّها كمصدر للارتقاء بالمستمعين، ونحن بهذا نقترب من جون ديوي.[32]

أمَّا براغماتيَّة غرايس فإنَّها تمتد في نزعة صوريَّة في إطار وصف الآليَّات التحتيَّة لنظريَّة القول أو نظريَّة التعريض implicatures، وهذا يتعلق بنسق لغوي يتأسَّس على مسلَّمات وفرضيات من قبيل نظريَّة القصديَّة عند سورل والسيكولوجيَّة المعرفيَّة الفرويديَّة. ويُعتبر تشومسكي هو الإطار الأكثر تطوراً الذي يبرّر البحث في اللغة بطريقة علميَّة؛ من خلال وصفه لأنماط التأويل في سياق نسق التعريض وكشف التواصل بشكل يستحضر فيه المحيط المعرفي للمتلقين أو المستمعين.[33]

إنَّ فرضيتنا بناء على ما سبق تؤدي إلى نتيجتين مهمَّتين:

- النتيجة الأولى تبين أنَّ الدوافع لرفض النزعة الصوريَّة ليست مصاغة بطريقة جيدة في طرحها.

- أمَّا النتيجة الثانية لهذه الفرضيَّة فقد سمحت لنا باكتشاف مجموعة أخرى من فروع المعرفة للبراغماتيَّة التي سمحت لنا بتحديد، بصفة عامَّة، الوضع الإبستيمولوجي لا المنهجي له، جنباً إلى جنب مع فلسفة الذرائعيَّة.[34]

إنَّ رفض النزعة الصوريَّة إنَّما يصاحبه قاعدة قويَّة من الناحية النظريَّة في الممارسة العمليَّة والمعتقد، فهذا الأخير غير قار وغير ثابت في السياق.

31. ibid, page 133.
32. ibid, page 134 - 135.
33. ibid, page 136.
34. ibid, page 138.

ففي اللسانيات يتمُّ استحضار السياق في إطار التحليل غير المهيمن الذي يتمُّ الاحتفاظ به عند النزعة البراغماتيَّة، ومع ذلك فإنَّ مسلمة من مسلمات اللسانيَّات الاجتماعيَّة على وجه الخصوص أنَّ البُعد الاجتماعي للغة إنَّما يغطي السياق بشكل فعلي.

إنَّ اللسانيات الاجتماعيَّة تحتلُّ منزلة مهمَّة في الدراسات اللسانيَّة، ويمكنها أن تؤثر في مصادر النزعة البراغماتيَّة، وخاصَّة مع النزعة التفاعليَّة مع كوفمان Goffman والنظريات اللسانيّة الاجتماعيَّة الأخرى التي ساهمت من جهة أخرى في تطوُّر مفهوم السياق.[35]

إذا تمَّ تحديد البراغماتيَّة باعتبارها (دراسة اللغة في سياقها)، كما ذكرنا ذلك سابقاً، يمكننا بالتالي إعطاء تعريف محدَّد للسياق المفترض من قبل البراغماتيَّات المختلفة، ومن الواضح أنَّ تحديد المحور (السياق) مع أوليفيي روبول Reboul يبقى أمراً إشكاليَّاً.[36] ويمكن أن نقدّم مثالاً على غموض الصياغة الأوستينيَّة (أوستين) التي تتحدث عن ظروف إنتاج التلفظ بناء على الثقل المفهومي وعمليَّة السياق في نظريَّة العلاقة pertinence، حيث ما يعادل جميع الأساليب المستخدمة للتفسير وبيان البناء السيكولوجي الخفي لفرضيات المتلقي أو المستمع لهذا العالم.[37]

يعطي ريتشارد رورتي أهميَّة كبيرة لمفهوم السياق، إلى حدٍّ كتابته لفقرة ديماغوجيَّة (سياسيَّة)، لا يوجد إلا السياقات. إنَّ راديكاليَّة هذا التصريح تلخص موقف رورتي إزاء السياق الذي أصبح نوعاً من الباراديغم التفسيري يذهب إلى حدِّ إلغاء الثنائيَّة التقليديَّة بين السياق وموضوع السياق.[38] ويميز رورتي بين نوعين كبيرين من السياق الجديد: الأوَّل يعود إلى مجموع السياقات السابقة المتعلق بالمواقف الحاملة للتلفظات التي تُعتبر جزءاً من الذاكرة أو التخزين الذهني، أي أنَّه يرتبط بنمط الاستدلال.

أمَّا النوع الثاني فهو عكس الأوَّل، يتحدَّد في ما يتمُّ اكتسابه من مواقف حاملة لتلفظات جديدة تقدّم قيمة للحقيقة، وإزاءها لا يكون أيُّ موقف يتمُّ التعبير عنه، من هنا يظهر الخيال على المحك.

خلاصة القول: إنَّ أهميَّة هذا المنعطف اللغوي أو على الأقل محاولته لمناقشة حقول العلوم الإنسانيَّة لا يمكن الاعتقاد أنَّه مهيمن على نظريَّة البراغماتيَّة. لأنَّه كما رأينا سابقاً **البراغماتيَّة بعيدة كلَّ البعد عن تمثيل نزعة براغماتيَّة موحدة**[39]، (بمعنى أنَّ لكل تيار جهازه النظري والمفاهيمي البراغماتي). لقد كنا حذرين في بيان وتقديم تطوُّرات البراغماتيَّة النظريَّة المنهجيَّة، إلى حدّ الشكّ في **عدم وجود انتماء مشترك لهذا**

35. ibid, page 138 - 139.
36. ibid, page 138 - 139.
37. ibid, page 139.
38. ibid, page 140.
39. Ibid, page 144.

النظام أو المرجعيَّة الفكريَّة، إذا كان موضوعنا هو بيان الالتباسات الاصطلاحيَّة رغم إمكانيَّة البحث عمَّا هو مشترك تحت أشكال اللسانيَّات التفاعليَّة ونظريَّة الفعل المحدد أكثر من البحث عن فضاء دلالي عائلي مشترك. غير أنَّنا أمام حقيقة إبستومولوجيَّة وهي أنَّ هذه الدراسة تكشف عن نتيجة ممكنة لحقل بحث غير محدَّد إلى حد الآن لشساعة السجالات المحتملة، كي يتحقق مصطلح عزيز إلى ريتشارد رورتي هو ما بين البراغماتيين والذرائعيَّة.

رابعاً: في آفاق البراغماتيَّة التي تطرحها قضايا المجتمع الغربي المعاصر، نموذج «وليام جيمس»

الحالة الأولى:

في محاولة تحديد معنى مصطلح «الدّين» لدى المجتمع الغربي، نجد أنَّها عمليَّة تتركَّب من العديد من النقاشات، حيث إنَّ الأمر لا يعدو فكرة تحقيق فائدة بقدر ما أنَّه يفيد ما فيه خير للبشريَّة جمعاء، وبالتالي يجب ألَّا نكون دوغمائيين في مناقشتنا للأمر وتناوله من منظور مرجعي لثقافتنا نحن، بل يجب أن نضع قواعد لمدى نجاعة هذا المجتمع، وكيف تفوَّق علينا في شتَّى الميادين، في حين أنَّ الحقيقة المطلقة نحن من نملكها كما ندَّعي، وهل حقاً نحن كذلك؟ لننطلق الآن لنرى القيمة التي احتلها وليام جيمس في مجتمعه، وكيف طبقت نظرياته وتمَّ نقاشها في ميادين تتجاوز الأقسام والكتب. هنا سنعمل على نصٍّ يحكي بالتفصيل مساهمة وتأثير نظريات وليام جيمس في القضاء الأمريكي.

تُعتبر كتابات الفيلسوف وعالم النفس وعالم اللاهوت وعالم الاجتماع وليام جيمس كتابات كان لها بليغ الأثر على الإدارة والمؤسَّسة القضائيَّة بأمريكا، فالقاضي جاكسون خلص في كتاب ballard إلى «أنَّ المعتقد الديني هو تجربة عاطفيَّة أكثر ممَّا هو تفسير عقلاني، يتأثر بشكل قوي بالدراسات النفسيَّة والفينومولوجيَّة للتحوُّلات الدينيَّة عند وليام جيمس».[40] جاكسون أفاد بأنَّ وليام جيمس الذي كتب في هذه القضايا الدينيَّة كعالم، يذكرنا بأنَّه ليس اللاهوت ولا مناسكه الاحتفاليّة هي التي تحافظ على استمرار الدّين، بل إنَّه الانتماء وحيويَّة هذا الدين الفعَّال. أجل إنَّها الفعاليَّة التي في التجارب الدينيَّة المنفردة التعريف للدّين، المدمجة للدّين مع وليام جيمس في فهمه له.

بالمثل افترضت الدورة الثانية من الاستئناف في المحكمة من تعريف جيمس للدّين «الأحاسيس والأفعال والتجارب الفرديَّة للناس في عزلتهم، بقدر ما يمكنهم إدراك وفهم أنفسهم للوقوف على الارتباط بما يمكنهم اعتباره إلهيًّا».[41]

40. Jeffrey, Omar Usman, defining religion: the struggle to define religion under the first amendment and the contributions and insights of other disciplines of study including theology, psychology, sociology, the arts, and anthropology, Harvard law school, 2006, page 195.

41. ibid, page 195.

إذن، بحسب ما خلصت إليه المحكمة في الجلسة الثانية هو أنَّ تصوُّر وليام جيمس للإلهي ليس مشروطاً بوجود إله أو آلهة متعدّدة وغير ضروري، عوضاً عن هذا فإنَّها تستخدم في أوسع معانيها، كما يدلُّ أي موضوع على وجود إلهي، سواء أكان إلهاً محدَّداً أو لم يكن.[42]

بناء على ذلك؛ الجلسة الثانية بصورة عامَّة فسَّرت اللاهوت، في حين أنَّها تبحث عن ردّ فعل نفسي ملفت لما هو لاهوتي، وكما نلاحظ بالولايات المتحدة في محكمة مقاطعة شمال نيويورك، تطبيق وتفعيل تعريف وليام جيمس يتطلب مكتشفاً حقيقياً ليخوض في العمليَّات الداخليَّة لادعاءات العقل في تحديد ما إذا كان الاعتقاد هو اعتقاد ديني في الطبيعة.[43]

إنَّ حاجتنا لهذا العرض السابق عن حادثة قضائيَّة نوردها لتوضيح وتفعيل في الذهن للمدى الذي بلغته نظريات البراغماتيَّة، بحيث عملت الأجهزة القضائيَّة على توظيف العديد من الأطروحات التي تساهم في تحديد الدّين لغرض تعديلها إلى النحو المناسب لتقرير الأحكام في المسائل الجنائيَّة قبل إصدار الحكم، ولذلك نجد أنَّها استثمرت نظريات بول تايلش (عالم لاهوت) ووليام جيمس (عالم نفس) وإيميل دوركهايم (عالم اجتماع) لتأثيرها الكبير وتوظيفها. فالأمر لم يعد يقتصر على الحقيقة وعلاقتها بمطابقة الواقع بقدر ما نتحدَّث عن الحقيقة؟ وما هي هذه الحقيقة؟ هل نأخذ لحظة معبّرة عن فكرة مزاج لنصدر حكماً قيمياً على مذهب من أبسط زواياه، دون النظر في فاعليَّة هذا المذهب البراغماتي وحيويَّته التي بَنَتْ لنا مجتمعات حكمت العالم وسيرته؟ الحاصل أنَّها حقيقة لم تساهم في تركيب وتشييد مجتمع ما، بقدر ما أسَّست لنا عقليَّة؛ وجودها واستمرارها للدليل على نجاحها كنظريَّة مطبَّقة.

الحالة الثانية:

يمكن أن نجري مناقشات عن البراغماتيّة في مجال دراسات الاتصال والإعلام، إذ نجد هناك محاولة لإعادة إعمال للتقليد البراغماتي القائم على نظريات وليام جيمس وجون ديوي مع كريس راسل Chris Russill، وأيضاً نجد إعادة تصميم للبراغماتيَّة مع مايك سندبوت Mike Sandbothe لفلسفة وسائل الإعلام.[44] إنَّ العودة الثانية للبراغماتيَّة شكَّلت مصدراً للإلهام والتهييج بالنسبة إلى الفلاسفة منذ سنة 1970، حيث بدأت في نهاية المطاف تحقق تقدُّماً مهمَّاً في دراسات الاتصال. وقد ساهم بروز مفهوم البراغماتيَّة الجديدة (أو المحدثة) من «فلسفة الإعلام» في تثبيت صحة ادعاء موجة جديدة من البراغماتيَّة في الدراسات الإعلاميَّة والاتصالات.[45]

42. ibid, page 195.

43. ibid, page 195.

44. Mats BERGMAN, The New Wave of Pragmatism in Communication Studies, Nordicom Review 29 (2008) 2, page 135.

45. ibid, page 135.

هذه الموجة الجديدة للبراغماتيَّة في دراسات التواصل تتمثل أساساً في محاولتين جديدتين لتقييم دور البراغماتيَّة في دراسات الاتصال والإعلام مع كلٍّ من:

1 ـ كريس راسل الذي يستند إلى النظريات الكلاسيكيَّة لكلٍّ من وليام جيمس وجون ديوي.

2 ـ رسم وتصميم مايك ساندبرت للبراغماتيَّة الجديدة للانضباط الذاتي لفلسفة الإعلام.

ممَّا لا شك فيه أنَّ هناك بعض أوجه التشابه بين هاتين المحاولتين، ومع ذلك نرى أيضاً وجوداً لأوجه الاختلاف بينهما، ممَّا يشير إلى بعض التوترات في الفكر البراغماتي. وعلى هذا يبدو أنَّ الهدف الرئيس في هذه المحاولة هو إبراز كيف سعى كلٌّ من كريس راسل ومايك ساندبرت إلى الاستفادة من فلسفة براغماتيَّة تميل إلى تجاوز تشارلز س. بيرس، مؤسّس البراغماتيَّة لصالح شخصيات أخرى. ورغم أنَّه يبدو تفضيل قصير النظر إلى حدٍّ ما، إلا أنَّه يمكن أن يسلب حركة البراغماتي من بعض قوَّته النظريَّة ويضعه في موقف نقد محتمل.[46]

ونظراً لوضع جون ديوي كبراغماتي أصيل للموجة الجديدة، إلا أنَّه من المفيد إثبات أنَّ هناك الكثير من أوجه التوافق بين براغماتيَّة بيرس وبراغماتيَّة جون ديوي أكثر ممَّا هو متعارف عليه، ومع ذلك، فإنَّ العودة إلى بيرس من شأنها أن تنطوي على أكثر من تحديد للروابط بينه وبين ديوي، ويمكن القول إنَّ فلسفة بيرس قادرة على توفير منصَّة خصبة للدراسات النقديَّة، على الرغم من الميول غير العصريَّة تجاه شكل النظام، التي وقعها يبدو له واقعيَّة «في محاولة منّي لتلبية الانتقادات الضمنيَّة والصريحة لبيرس، سوف أقترح أيضاً دراسات الاتصال التي ستعمل على نحو أفضل من خلال تكييفها بشكل مناسب مع العادة الواقعة لبيرس، ثمَّ من قِبل خصوصيَّة جيمس التي يفضلها العديد من براغماتيي الموجة الجديدة».[47]

قد يوصف مشروع كريس راسل على أنَّه محاولة لإثبات وجود تقليد للتواصل النظري عن البراغماتيَّة، وهي محاولة أيضاً تصبُّ في إبراز أهميتها المعاصرة، ورغم أنَّ هذا قد يمنح شعوراً بالمبالغة من الوهلة الأولى، إلا أنَّه لا يمكن إنكار أنَّ الفكر البراغماتي آثر الجانب الميداني في نواحٍ كثيرة، وهذا يجعلنا نفترض وجود حالة من التأثيرات على علماء فرديين بدلاً من تقليد الفكر بالمعنى الصحيح.

مع ذلك، تبقى هناك وسيلة مختلفة لفهم طبيعة التقليد بعيدة المنال. فراسل (2004) برهن على أنَّ البراغماتيَّة قادرة على تلبية المعايير التي أنشئت في «النموذج التأسيسي» لروبرت كريغ robert graig من نظريَّة الاتصال theory of communication، حيث يحدّد كريغ (1999) سبعة تقاليد لنظريَّة الاتصال: الانتقاديَّة، والسبرانيَّة cybernetic، والظواهر الخطابيَّة (بلاغيَّة)، والسيميائيَّة، والاجتماعيَّة

46. ibid, page 136.

47. ibid, page 136.

والثقافيَّة. ونجد أنَّ راسل ينتقد كريغ لتجاهله تقليداً ثامناً يعود للبراغماتيَّة. وكما أنَّ كريغ في عام (2007) ضمَّ مفهوم راسل في «نموذج ميتا اللغوي» (metamodel) المنقح، وقد نفترض أنَّ هذا المسعى كان على الأقل نجاحاً جزئيًّا؛ فالبراغماتيَّة هي بداية لتكون مقبولة كبديل حقيقي في نظريَّة الاتصال.

ومع ذلك، فإنَّ الأمر يستحق أن نلقي نظرة فاحصة على فهم معيَّن للتقاليد التي يدعو إليها راسل، في حين أنَّها مع ديوي وبعض الدعم من جورج هربرت ميد تتخذ وضع تصوُّر براغماتي فريد للاتصال، وهي ثمرة من جهود وليام جيمس الرائد الذي زعم افتراض إمكان تحقيق هذا الأمر وجعله ممكناً في الواقع، لهذا يبدو مسعى راسل الترميمي هو أن يكون محفزاً جزئياً بالرغبة للإشارة إلى جيمس باعتباره رائداً يتغنى بدراسات الاتصال. لذلك يشير راسل إلى أنَّه يتعين علينا العودة إلى البراغماتيَّة عبر التجريبيَّة الراديكاليَّة لوليام جيمس.[48]

فالتجريبيَّة ببساطة «تضع الضغط التوضيحي على الجزء والعنصر والفرد، وهي تعامل كلَّ ذلك كمجموعة أو كمسلَّمة تماماً كأنَّها عمليَّة تجريد».[49] والعكس صحيح بالنسبة إلى العقلانيَّة التي «تميل إلى التأكيد على المسلَّمات وربط الكلّ قبل الجزء بشكل منطقي تماماً كما نودُّه أن يكون».[50] بعبارة أخرى: إنَّ كلَّ هذا ليس سوى مجموع أجزائه، ومسلَّمات اختزلت إلى تفاصيل. ومع ذلك من أجل أن تكون جذريَّة radical، يجب على التجريبيَّة أن تعرف مباشرة علاقات الخبرة في بنائها. هذا ليس مجرَّد خبرات معيَّنة أخذت لتكون «حقيقة»، ولكن أيضاً أيَّة علاقة معيَّنة بين الخبرات التي اختبرت في الواقع.[51]

وفقاً لذلك، يصبح لدينا غرض وليام جيمس الأصلي للتجربة الراديكاليَّة بأن يضع التركيز على إعادة التصوُّر reconception من الخبرة المباشرة؛ فالتجريبيَّة الراديكاليَّة تتضمَّن العلاقات الأساسيَّة للاستمرار والانقطاع فضلاً عن أمور أخرى في مجال إدخال تجريبيَّة مقبولة. عموماً الفكرة تدور حول تلبية حاجة التفكير من أجل تصنيف كـ«التدفق الأصلي للحياة» على وجه الخصوص، ولذلك يوافق راسل على منهج جيمس في تمثل حاجة التجميع الفعَّال والمنظَّم من قبل فاعل agent في «كيف لعقلين اثنين معرفة الشيء نفسه».

48. **التجريبيَّة الراديكاليَّة** هي مذهب براغماتي قدَّمه ويليام جيمس. يؤكد على أنَّ التجربة تشمل الخصوصيات والعلاقات بين تلك الخصوصيات على حد سواء، وبالتالي فإنَّهما يستحقان مكانًا في تفسيراتنا. وبشكل واقعي: فإنَّ أيَّة نظرة كونيَّة فلسفيَّة تكون معيبة إذا توقفت عند المستوى المادي وفشلت في شرح كيف من الممكن أن ينشأ المعنى، والقيم والقصديَّة منه. يقول جيمس في معنى الحقيقة إنَّ التجريبيَّة الراديكاليَّة مسلَّمة، بيان بالواقع والنتيجة. فالمسلَّمة هي أنَّ "الأشياء التي يمكن مناقشتها بين الفلاسفة يجب أن تكون من الممكن تعريفها في سياق مستخلص من تجربة". أمَّا الواقع فهو تجربتنا التي تتضمَّن كيانات منفصلة فضلاً عن أنواع مختلفة الاتصالات، فهي ممتلئة بالمعاني والقيم. والنتيجة هي أنَّ نظرتنا الكونيَّة لا تحتاج إلى "دعم توصيلي عبر تجريبي خارجي، ولكنَّها تمتلك في حدّ ذاتها بنية متسلسلة أو مستمرَّة". انظر موسوعة ويكيبديا: تجريبيَّة ـ راديكاليَّة/https: //ar.wikipedia.org/wiki.

49. Mats BERGMAN, The New Wave of Pragmatism in Communication Studies, Nordicom Review 29 (2008) 2, page 137.

50. ibid, page 137.

51. ibid, page 137.

التجارب تأتي إلينا على نطاق هائل، وإذا أخذناها كلها معاً، فإنَّها ستتجلَّى لنا في فوضى علاقات غير قابلة للقياس (وغير متكافئة حتى) لكي نقوم بتعديلها خارجاً، علينا إذن في هذه الحالة أن نقوم بتجريد مجموعات مختلفة منها، وأن نتعامل معها بشكل منفصل إذا أردنا مناقشتها كلها، لكن كيف نستوعب التجارب والخبرات التي تقع منها؟ أو كيف تبدو علاقاتها وصفاتها؟ لا يمكننا أن نبدأ في الفهم. (جيمس، 1905b، الصفحة 180).[52]

من هذا البيان نلاحظ أمرين: الأول: يبدو أنَّ جيمس يطالب التجريد بوصفه مكوناً ضرورياً في عالم ذي معنى، وهو في أيَّة حالة يبقى من الصعب أن نرى كيف أنَّ الفلاسفة قادرون على إنتاج الخطاب المعقول دون مناشدة مثل هذه المفاهيم. الثاني: يبدو لإدخال التمييز الثنائي بين معرفة الأشياء ومعرفة الموضوعات هذا نوع من الفصل يريده وليام جيمس لتأكيد إلغائه من اللغة الفلسفيَّة.

يقول راسل مع هذا: إنَّ جيمس قد حدَّد المشكلة الرئيسة للاتصال عندما يتمُّ بناء السؤال المعرفي: كيف لعقلين اثنين أن يعرفا الشيء نفسه على أساس أو قاعدة مشكل لا قابليَّة القياس incommensurability؟ فهو يعتبر التمييز بين الأشياء والموضوعات نتيجة للنشاط المعرفي الذي يؤديها لأغراض معيَّنة بدلاً من واقع صعب وسريع ينتظر أن يستكشف. توظيف مصطلحات جون ديوي بحسب ادعاء راسل هذا التمييز وضع «في العمليَّة القادمة لمعرفة وحلّ الوضع الإشكالي».[53]

نحن نعيش في عالم من العلاقات المتنوعة؛ إنَّها تبدو غير مناسبة، الأمر الذي ينتج عنه تحدٍ صعب بتنسيق عملي لأنشطتنا في بيئة محايدة. في ظلّ حساب راسل، يرد هذا الوضع كالإعداد الأساسي لبناء نظريَّة الاتصال في قالب براغماتي. منذ أن أخذ الاتصال معنى في مجال تتميز فيه العلاقات المتكافئة بتجرُّد، وتحوّل التركيز من مواضيع تسعى لمعرفة الكائن إلى كائنات طبيعيَّة تعمل في النشاط الاجتماعي الهادف.

وكما يلخص كريغ (2007) الأمر: «التقليد البراغماتي في مفهوم الاتصال استجابة لمشكل عدم قابليته للقياس هذا؛ هو أنَّ المشكلة من التعاون في العالم الاجتماعي التعدُّدي تتميز بعدم وجود معايير مشتركة، مطلقة لحلّ الخلافات. (الصفحة 131)» وهكذا نستنتج أنَّ التجريبيَّة الراديكاليَّة لجيمس توفر بالنسبة إلى راسل إعادة إعمار من التقليد البراغماتي من وجهة نظر عالميَّة وأنطولوجيَّة أوليَّة initial ontology، إنَّها الكون من عدم التعيين والتعدُّديات، ومن ثمَّة من الجدير بالانتباه أنَّ التجريبيَّة الراديكاليَّة وتفسير راسل للنظام عند جيمس، أنَّ هذا من شأنه أن يسمح لنا بوصف جمعي للمفرد أو للشيء نفسه. ونتيجة لذلك، يمكن وصف العالم في مجال العلوم الطبيعيَّة والعلوم الإنسانيَّة، أو حتى الدّين، من دون عقد أحدها بضرورة التأثير على الأخرى.

52. ibid, page 137.

53. ibid, page 138.

مثل هذه التعدديَّة يجب ألا تتعارض مع مقاربة راسل، ولكن يبدو أنَّها تضع مشكلة عدم قابليَّة القياس في مستوى مختلف من النقاش، ولكن بعد ذلك؛ فمن المسلَّم بالأحرى أنَّنا نستطيع فهم ما يعنيه جيمس بعدم قابليَّة القياس أو «اللَّاقياس» للتجربة الخالصة، في ما سبق ممَّا رصدناه أعلاه، وعلى هذا النحو المقصود، تميزت العلاقات غير المتكافئة؛ تجريدات وتصنيفات لزمت تفوُّق قاعدة جاهزة للمقارنة وخطاب فريد ممكن. وهذا من شأنه مجدداً أن يشير إلى أنَّ هذا الغير قابل للقياس هو حقيقة لخبرة ما بدلاً من أن تكون إطاراً تصويريَّاً، وهذا النشاط التجريدي قد يكون مدفوعاً بحاجة إلى تفوُّق حسٍّ منفصل على الصعيد التجريبي. في الواقع، يوحي راسل بأنَّ هذه النتيجة صحيحة للتجريبيَّة الراديكاليَّة: تصوُّر لعالم كامل من العلاقات التي كانت تبدو غير قابلة للقياس، والتي مع ذلك ليست سوى نقاش أو استفسار. إنَّه يناقض هذا الموقف لأولئك المثقفين المنفعلين بالبراغماتيَّة.

«...Contra Rorty, there is no absolute or necessary incommensurability implied by James's position, nor, contra Habermas, can the problem be overcome once and for all. Demonstrating incommensurability is not the theoretical goal or end of James's position; it is a practical beginning. (Russill 2005b, p. 291)».[54]

بينما يضع راسل Russill أساس نقاشه للبراغماتيَّة في سياق المناقشات حول نظريَّة الاتصال، يختار ساندبوت Sandbothe مساراً أكثر ثوريَّة، حيث يرغب في تجاوز الخلافات الفلسفيَّة التقليديَّة في هذا المجال من خلال تبنّي البراغماتيَّة الجديدة المستوحاة من ريتشارد رورتي.

يحدّد ساندبوت مسارين لمشروع فلسفة الإعلام: الأوَّل هو **المسار النظري** الذي يعتبر فلسفة الإعلام كتخصُّص تأسيسي جديد في الفلسفة، والثاني هو **الخيار البراغماتي** الذي لا يقدّم نفسه باعتباره أساساً جديداً للفلسفة. وهذا الأخير ليس متصلاً بتحوُّل جذري في فلسفة الصورة الذاتيَّة، وإنَّما يرتبط بتطوُّر ريتشارد رورتي العلمي من المطلع اللغوي. وفقاً لساندبوت «تستلزم النزعة النظريَّة فهماً للإعلام الفلسفي التي هي انعكاس النظري على شروط إمكانيَّة توليد المعنى وتركيب الواقع، بحيث يجسّد نهاية علميَّة في حدّ ذاته».[55] فالمسار النظري الظاهر هو خلاصات من كلّ السياقات الملموسة للجهة التي تهمُّ، وكلّ الأهداف المحدّدة من قبل المجتمعات البشريَّة والمنهج البراغماتي يؤكد على أولويَّة العمل لكن دون معارضة ذلك العمل النظري في حدّ ذاته. ولهذا دعا ساندبوت إلى تطوير الإعلام الفلسفي من وجهة نظر البراغماتيَّة المحدثة. التي تزعم أنَّها «تؤدي إلى محاولة لربط وسائل الإعلام من الناحية النظريَّة بتفسير الأسئلة الأساسيَّة في الفلسفة الحديثة إلى الآفاق الاجتماعيَّة والسياسيَّة للعمل الذي يوجّه المجتمعات الديمقراطيَّة».[56]

54. ibid, page 138.
55. ibid, page 140.
56. ibid, page 140.

وهكذا، وعلى نقيض التركيب، ساندبوت لا يسأل في المقام الأول عن كيفيَّة تشكّل «الواقع» في التمثيل العقلي. فسؤاله الجوهري يتعلق حول كيف يمكن للواقع أن يتحوَّل باستخدام وتطوير الأدوات المعرفيَّة. هذه النزعة التحويليَّة هي وجهة نظر متطرّفة للّغة، التي «تربط «البراغماتيَّة» مع «التحويل» في معنى لـ»غير طبيعي» و«مبتكر» و«متحوّل»».[57] إنَّه يتجنَّب دعاوى النطاق العالمي، لتعزيز بناء المفردات «المحليَّة» دون تنصُّل من الالتزامات السياسيَّة الصريحة. وإلى حدٍّ كبير، وجد الأساس الفكري لهذه المقاربة ليدعم فلسفة وليام جيمس، ولذلك يميل ساندرت إلى وصف براغماتيَّة جيمس كمنهج وكنظريَّة وراثيَّة للحقيقة.[58]

وكمنهج، البراغماتيَّة هو أن نفهم أنَّها أداة لتسوية النزاعات الميتافيزيقيَّة، فالتعبير الكلاسيكي لهذه المقاربة المنهجيَّة هو المبدأ العلمي عند بيرس.

«Consider what effects, that might conceivably have practical bearings, we conceive the object of our conception to have. Then, our conception of these effects is the whole of our conception of the object. (CP 5.402 [1878])».[59]

نجد أنَّ وليام جيمس (1898) يوافق على الاتجاه العام لحكمة بيرس. ولكنَّه يؤكّد على ضرورة الحفاظ على تعبير «بشكل أوسع more broadly». وبالرغم من هذا، فإنَّ هذا الافتراض غير قابل للنقاش، في حين أنَّ جيمس يوسّع البراغماتيَّة على عدَّة طرق ومناهج. على سبيل المثال: في اتجاه نظريَّة الحقيقة ووجهة نظر فلسفيَّة للعالم محدَّدة، ومن جهة أخرى ساندبوت يعتقد أنَّ هذا التضييق للمنهجيَّة البراغماتيَّة methodical pragmatism هو سبب مقنع لاختيار جيمس ورفض بيرس كشعاع رائد لفلسفة الإعلام البراغماتي.

وعلى النقيض من جيمس، فإنَّ بيرس، الذي يظهر أنَّ تفكيره من خلال شهادته يولي تركيزاً لنقطة انطلاقه من الفلسفة المتعالية الكانطيَّة، يفسّر الحكمة البراغماتيَّة في معنى يفيد وجود مفهوم تطوُّري من الشموليَّة المتعالية: وفقاً لبيرس إنَّها تحمل ليس فقط «وظيفة كاملة من التفكير لإنتاج عادات العمل»، وبالرغم من هذا، فهو يتجاوزه لتعريف «هويَّة العادة» identity of habit بطريقة متعالية، بهدف «الكيفيَّة التي يمكن أن تؤدي بنا إلى العمل، وليس فقط بأن تبقينا تحت ظلّ الظروف التي يرجَّح أن تنشأ، ولكن في ظلّ قوَّة مثل قوَّة ربَّما تحدث، مهما كان وارداً أنَّها قد تكون».[60]

في معارضة هذا، نجد لجيمس ما هو ملموس ومفروض، وهذا هو على وجه التحديد؛ عواقب معيَّنة تحدّد المفهوم الذي يشكّل معناه. ولهذا الاقتباس الأخير (أعلاه) ما يكشف سبب تجاهل ساندبوت لبيرس وتفضيله

57. ibid, page 141.
58. ibid, page 141.
59. ibid, page 141.
60. ibid, page 141.

لجيمس كـ«براغماتي أكثر اتساقاً». فمصطلحات مثل «المتعالي» و«الكوني/ أو الشمولي» مرفوضة لدى بعض أشكال البراغماتيَّة الجديدة؛ فالشكل السابق يفترض أنَّه يكشف عن هاجس كانطي مع شروط المعرفة في حين أنَّ هذا الأخير يشير إلى الاعتقاد بأنَّ الفلسفة يجب أن تسعى جاهدة من أجل متطلبات المعرفة لنطاق كوني، بدلاً من تعزيز مادي وتحديد سياسي حاسم وتحوُّلات تاريخيَّة مشروطة العمل.[61]

النظريَّة الوراثيَّة للحقيقة التي يتبنَّاها ساندبوت كثاني مساهمة رئيسة لوليام جيمس، هي نتاج تطبيق منهج البراغماتيَّة، وفهماً على طريقة وليام جيمس نفسه لمفهوم «الحقيقة»؛ ضع ببساطة: «الحقيقي/ الصحيح» هو ببساطة ذاك الذي يعمل في ضوء حالة مشكلة محدَّدة. والرأي الصحيح هو الذي يفيد لإنتاج التماسك بين التجارب الخاصَّة التي تواجه الفرد؛ إنَّه الفكرة التي تتوسط بين مخزون [الآراء القديمة] وتجربة جديدة، فيمتدّ بها إلى واحدة أخرى أكثر نجاحاً وملاءمة.

وهنا نرى كيف أنَّ براغماتيَّة جيمس قد تلتقي التجريبيَّة الراديكاليَّة، حيث إنَّ «البراغماتيَّة التعدديَّة» عنده تعرف الحقيقة من حيث تماسك الخبرات المحدودة، وبالمعنى الصحيح «للحقيقي/ الصواب» هو يقصد أنَّ هذه الفكرة يجب أن تعمل على التغلب على الصراع الناجم عن تجربة جديدة. وهذه وجهة نظر فرديَّة راديكاليَّة وخصوصيَّة، تماماً كهذا الذي يعمل لفرد معيَّن في حالة معيَّنة، في مجال له من التجربة، إنَّها هي الحقيقة؛ معيَّنة ونسبيَّة وقابلة للتغيير.[62]

تماماً كراسل، يوافق ساندبوت على أنَّ منهج فلسفة جيمس يتعامل مع عدم التعيين indeterminacy: ففي حين يجد راسل ميتافيزيقا براغماتيَّة مقبولة في المذهب التجريبي الراديكالي، ساندبوت يهتمُّ أكثر بالمنهج البراغماتي لجيمس الذي يفتح الأبواب لفلسفة الإعلام التحويليَّة.[63] **وبالتالي فهو يلاحظ أنَّ النزعة الفرديَّة لوليام جيمس لا تؤدي إلى استقالة أو فصل أخلاقي أو سياسي؛ بل إنَّها تؤدي إلى تعزيز النشاط، حيث على كلّ عامل أن يفعل ما في وسعه لتعزيز مجتمع شامل على الصعيد العالمي من منظور حضارته.** ومع ذلك، يحتفظ جيمس بخاصيَّة حسَّاسة عن الصراع، وهي تتمثل في تكاليف هذا التقدُّم المجتمعي. لأنَّ تطبيق فكرة ما يكون دائماً على حساب تفنيد أخرى، وهنا يأتي دور ريتشارد رورتي كحلٍّ بديل لهذه المعضلة.

فبالنسبة إلى ساندبوت تُصرّح «النزعة العرقيَّة» عند رورتي على أنَّها البديل الوحيد للبراغماتي المتسق، وبدلاً من البحث عن موقف مقبول بشكل عام، يجب علينا أن نتحدَّث عمَّا هو الأفضل في مجموع

61. ibid, page 142.
62. ibid, page 142.
63. ibid, page 142.

الآراء والقيم التي وقعت لنا لنكون قد ولدنا لها، ولنسعى جاهدين لتحويل الممارسات القائمة بطريقة تدريجيَّة، مع المطالبة بسلطة شاملة أو أبديَّة.[64]

ساندبوت لديه مساهمة خاصَّة في بعثة البراغماتيَّة الجديدة، وهي التركيز على الإعلام الجديد كساحة لتحويل المفردات والممارسات السياسيَّة، راسماً لذلك دعماً إضافيًّاً من فيتجنشتاين ونيتشه. فهو يبيّن في تمهيده اللَّانظري «نحو الحكمة guiding maxim» ما يلي: «فلسفة الإعلام البراغماتيَّة ينبغي أن تتجنَّب بناء كلمات «التوسُّط» و«الإعلام» كمفاتيح للمفاهيم المعرفيَّة مع أيّ غموض أو التباس للتقليد المعرفي أو اللغوي يمكن أن نعرفه نهائياً لحلها على الإطلاق، وبدلاً من ذلك ينبغي إيلاء الاهتمام للاستخدام المادّي الذي نتخذه، أو لا نتخذه، وألَّا نجعلها من وسائل الإعلام في سياقات معينة في العمل».[65] فوسائل الإعلام يجب اتخاذها كأدوات لنشر الأفكار وربط المسافات بين الناس، لكن في ضوء السياق السياسي والتاريخي. **وهذا يمكن أن نعتبره فكرة صحيحة للموجة الجديدة من البراغماتيَّة، حيث يمكن النظر إليها كمنهج واستجابة للمتغيرات البيئيَّة الإعلاميَّة (بالمعنى الواسع). وكذلك كمصدر من الأدوات لتحويل البيئة المعرفيَّة التي تقيّد عمل الإنسان وإمكاناته**. وعلى هذا نكون قد توقفنا عند المواد التي سنحتاجها لفهم منطلقات وأهداف راسل البراغماتيَّة المتعلقة بمشروعه، وأيضاً لفهم دوافع ساندبوت التي دعته إلى تجاوز بيرس لصالح وليام جيمس، والذي كشف أحد أسباب إهماله لبراغماتيَّة بيرس هو تمسُّكها بالواقعيَّة.

خلاصة القول: يمكن أن نجمل أنَّ راسل يستند في إعادة الأعمال التي لديه من تقليد براغماتي على أساس:

1 – الاعتقاد بأنَّ فلسفة جون ديوي بنيت بشكل مباشر على براغماتيَّة وليام جيمس.

2 – افتراض أنَّ مفاهيم التحقيق والفلسفة التي تنطوي عليها التجريبيَّة المتطرفة تشكّل نقطة انطلاق كافية وأرضاً خصبة لنظريَّة الاتصال communication theory.[66]

ورغم ذلك، يجب ألَّا نضع من قيمة جون ديوي جانباً، فهذا سيكون خطأ، فادعاء راسل بأنَّ نظريَّة المعرفة عند جون ديوي تستند إلى التجريبيَّة الراديكاليَّة لوليام جيمس أمر مشكوك فيه.[67] ويبقى دائماً مطلب وضرورة استعلام المرء عمَّا إذا كان مثل هذا التصوُّر من الخبرة والفلسفة هو حقاً أمر مرضٍ لنظريَّة الاتصال البراغماتي، واجب التحقق منه والفحص فيه. فكما لاحظنا بالفعل نظريَّة جيمس تتطلب الالتزام الصارم للخبرة المباشرة، التي فجأة وبشكل غير مريح تتخلَّى عن الاعتراف بدور التجريد. وهنا تصبح التجريبيَّة الراديكاليَّة نفسها غير مجهَّزة للتعامل مع المفاهيم العامَّة «المسلَّمات» اللازمة لفهم العالم.

64. ibid, page 143.
65. ibid, page 143.
66. ibid, page 146.
67. ibid, page 147.

«فالمسلَّمة هي البيان الأساسي للطريقة التجريبيَّة؛ فيجب ألَّا تتضمَّن نظرياتنا أيَّ كيانات فوق طبيعيَّة أو فوق تجريبيَّة. والتجريبيَّة هي نظريَّة المعرفة التي تؤكّد على دور التجربة، والإدراك الحسّي بوجه خاص، في تشكيل الأفكار، في حين أنَّها تسقط من الاعتبار الاستدلال البدهي أو الحدس أو الوحي. يقول جيمس إنَّ الكيانات فوق التجريبيَّة قد تكون موجودة، ولكنَّ الحديث عنها غير مثمر».[68]

وفي سياق مناسب يحيل مات برغمان Mats BERGMAN إلى أنَّها «بالمعنى الدقيق للكلمة، ينغي أن تقتصر على الخبرة المباشرة، إذا أريد لها أن تكون مسموحاً بها في النقاش الفلسفي على الإطلاق؛ وبعد، كما تتجاوز تجارب معيَّنة، فهي الإنشاءات الفكريَّة المشبوهة الشرور اللازمة. هنا يمكن أن يتوفر في نهج بيرس بديل جذَّاب».[69]

يقول بيرس: إنَّه «يجب علينا أن نبدأ مع كلَّ الأفكار المسبقة التي لدينا في الواقع عندما ندخل لدراسة الفلسفة»، وهذا يعني أنَّ التجربة بالمعنى الكامل هي «مجموع نتائج إدراك الحياة».[70] فنتيجة حقيقة أنَّنا نتصرَّف/ نفعل acting، يعني أنَّنا كائنات ذكيَّة في العالم الذي غالباً ما يقدّم العقبات التي تعترض أفعالنا وتفاجئ توقعاتنا. إذن التجربة هي نتيجة إجراءات ومعاملات محدَّدة.

إنَّ جون ديوي يتفق مع وليام جيمس على أنَّ الفلسفة لا يمكن أن تتجاوز الخبرة، ويمكن القول إنَّ تصوُّره أكثر غنى وثراءً، بمعنى آخر من المعاني، تصوُّر جون ديوي للتجربة هو أقلُّ نقاءً من التصوُّر الذي نجده عند وليام جيمس؛ لأنَّه مشوب بالممارسات والعادات.

في نقد الفلسفة الهيغيليَّة، يصرُّ بيرس على أنَّ الفلسفة يجب ألَّا تبدأ من الأفكار الخالصة، فهي يجب أن تعنى في معنى معيَّن مأخوذ من تجارب حياتنا اليوميَّة، هدفها الأوَّل ليس هو عدم بناء عوالم من ذرات التجريبيَّة (الأشياء والعلاقات)، وإنَّما تحليل كيفيَّة ربط الخبرات بمفاهيم وعادات العمل، والأهمُّ من ذلك؛ كيف يمكن انتقاد وإصلاح مثل هذه العادات؟

هناك سبب واحد وجيه لتفضيل براغماتيَّة بيرس لجيمس كإطار لدراسات الاتصال، وهو أنَّ الأول لا يتطلب أن تشكّل العالم من خلال تجارب معيَّنة. فتصوُّر بيرس للخبرة يبقى أوسع، وضعت بشكل طبيعي أكثر في سياق عادات الفعل أو العمل. والأكثر من ذلك من خلال عدم تقييد الخبرة لتنظر مباشرة إلى الأشياء والعلاقات، لكن بما يعقل ذلك ضمن المجال التجريبي، فبيرس يترك مجالاً للبديل المعقول من الواقعيَّة،

68. https://ar.wikipedia.org/wiki/تجريبيَّة_-_راديكاليَّة

69. Mats BERGMAN, The New Wave of Pragmatism in Communication Studies, Nordicom Review 29 (2008) 2, page 147.

70. Ibid, page 147.

ويمهّد الطريق لفلسفة لا تقتصر على الوصف، كما كان ينبغي للتجريبيَّة الراديكاليَّة مع جيمس أن تكون، لو أنَّها تتمسَّك بمبادئها الخاصَّة.[71]

خلاصة القول: يمكن أن نثبت أنَّ بيرس يشكّل لحظة تجنبنا لبعض الصعوبات الخصوصيَّة التي يطرحها وليام جيمس، وفي الوقت نفسه، يساهم بيرس في تعزيز مفهوم بالغ الأهميَّة في الفلسفة البراغماتيَّة، كمفهوم التحقيق الذي لا يتقيَّد نطاقه بالتجربة الفعليَّة، لأنَّه لا توجد وسيلة لرفض المعتقدات والأفكار المسبقة جملة وتفصيلاً. وهذه الفلسفة المعياريَّة لبيرس هي انتقاد منهجي جمالي وأخلاقي على أمل تحسين قدرة الكائنات لتقبل خبرات جديدة. وهكذا يبدو أنَّ نهجه قد يوفّر مساحة ووسائل استشكاليَّة، تُفهم على أنَّ تحقيق ذلك ليس مجرَّد حلّ المواقف الصعبة، ولكنَّه تحقيق يقدّم نشاطاً على أمل تطوير عادات تجعل الإنسان يتتبع آثاراً افتراضيَّة من التبنّي والتكيُّف مع عادات معيَّنة.

ملاحظات هامَّة

عرفنا ممَّا سبق أنَّ رورتي يرفض اللغة الماورائيَّة بناء على افتراض وجود مطابقة بين اللغة والواقع تحتكم لمعيار الصدق، وعند فحصنا لهذا الأمر سنرى أنَّه يستدعي تقديم أطروحة مغايرة وبديلة لهذا الموضوع، وفي ذلك السياق سنجده يردُّ أساس الأمر إلى مفهومين مركزيين هما: الخاصيَّة الفعاليَّة وخاصيَّة الاستعماليَّة، وبالتالي تصبح اللغة منوطة بهذين المفهومين من جهة الاعتقاد التي يراها رورتي بشكل نخالفه فيه أنَّ اللغة هي أساس الاعتقاد، وهي ما يغذي اعتقاداتنا في سياق الحياة اليوميَّة.

ففي اللحظة التي يعتقد فيها ريتشارد رورتي أنَّ محاولة البحث عن معيار صدقي قد اتخذت أشكالاً متعدّدة تتمثل في التفكير في العالم أو الذات الإنسانيَّة كامتلاك لطبيعة إنسانيَّة أو جواهر، يغيب عنه مفهوم أنَّ الحقيقة هي «تكشف» للذات و«انفلات» وقتما سعت هذه الذات لامتلاك حقيقة «ما»، لذلك فالحقيقة نسبيَّة، فلماذا تختزل في لغة كتحديد لمعيار صدقي واحد داخلها ولا خارج عنها. ففي اللحظة التي يعتبر فيها أنَّ القول بـ«البحث عن معيار صدقي» يكشف لنا غياب الوعي عن الانسجام داخل النسق سواء أتعلق هذا النسق بنص أو فكرة أو واقع ما، ومادام هذا المعيار لا يسلب من كلّ موجود انسجامه الداخلي الذي يتماشى مع فكرة أو اعتقاد يخلق حادثة أو واقعاً اجتماعيًّا، فلماذا لا يُسمَّى معياراً من خلال منهجه الذي وضع فيه؟

ومن هنا يمكن أن نتجاوز نقد الكونيَّة الذي يقول به رورتي عندما برَّر أنَّ امتلاكنا لطبيعة إنسانيَّة أو جواهر ليس إلا نتيجة لمنح الامتياز للغة على حساب لغات أخرى، وهذا لكي ينتهي إلى فكرته التي يريد منها إضفاء طابع الكونيَّة عليها من خلال اللغة المتعالية على الزمن والتغير كشرطين أساسيين لوجود الكائن الإنساني، لكن ما يغيب في هذه الفكرة هو ما تطرَّق إليه أساساً وليام جيمس عندما نبَّه إلى فكر شمولي،

71. Ibid, page 148.

ولكن بمفهوم فردي، ولذلك وليام جيمس نعتبر فكره كان صائباً وينمُّ عن ذكاء من خلال دراسته للفرد، حيث إنَّه سعى في فلسفته البراغماتيَّة إلى الانفتاح والتواصل مع مختلف الثقافات، لكنَّ على هذا السعي والفهم في التواصل والاتصال أن يراعي البُعد السياسي والأخلاقي والثقافي لكل مجتمع. فالعالم لا يتحدث إلا من خلالنا ومن خلال تأويلنا وفهمنا له.

من الخطأ اعتبار اللغة حادثة، كما ذهب إلى ذلك بعض الباحثين، بل إنَّ الخطأ تطوَّر ليشمل التركيب الإدراكي لمفهوم الإحالة لديهم من خلال إسقاط معنى الحدوث، ليس فقط عند مستوى اللغة بل إلى الواقع، فعبَّروا عنه بواقع نبتكره باستمرار، وأساس هذا التركيب الإدراكي المغلوط بني على حجَّة أنَّه «لا مجال للحديث عن مرجعيَّة خارج اللغة وألعابها». بالنظر إلى أنَّ هذا الخطأ كبير في الفهم والفحص للنصوص من قبل الباحثين، يمكن أن نجمل جواباً عنه بحيث لم يكن هناك مجال للحديث عن مرجعيَّة خارجيَّة خارج اللغة وألعابها، فمن أين استمدَّت هذه اللغة دلالتها الأصليَّة وقواعدها التي تبني لنا المعنى لتخدم لنا قصداً؟

أليس من الطبيعة التي اعتقد الأفراد اعتقاداً عنها شكَّل ما يفيد دلالتها أو مقصداً بها ...؟ إنَّ حصر التفكير حول اللغة كمرجعيَّة نهائيَّة مسارنا إليها نهائي يرمي إلى القول هل كان للوجود الإنساني أن يكون لولا اللغة؟ أو بعبارة أخرى هل ولد الإنسان في اللغة وجودياً؟ إنَّ مثل هذا القول بدلاً من الأخذ بتمامه ترجمة كان المفترض، وعسى ذلك ما حدث، أن تتمَّ معالجته بدلاً من النظر في ما يسنُّه رورتي في اعتقاد الباحث وفي اعتقاد غيره. من هنا نفهم أنَّ «المعرفة -في جانب منها- معرفة خاصَّة وفرديَّة وذاتيَّة بالضرورة، وهذا ما يفسّر الاهتمام الشديد بنظريَّة المعرفة في مجال الفلسفة، ولكنَّ المعرفة من ناحية أخرى هي أداة التواصل الاجتماعي، ووسيلة الاتصال في المجتمع الإنساني. وهذا التواصل والاتصال يجعل من المعرفة مسألة اجتماعيَّة بالضرورة. فالمعرفة لا تكتسب معناها إلا باتفاق الناس على ذلك المعنى، ولا تتحدَّد حقيقتها إلا باشتراك الناس في وضع المعايير، التي يتمُّ من خلالها الحكم على حقيقة المعرفة، وهذا ما يفسّر الاهتمام الشديد بنظريَّة المعرفة في إطار المجتمع».[72]

وهكذا فإنَّ كلّ معرفة لا تهمُّ أن تكون نظريَّة فلسفيَّة محضة، وإنَّما هي أيضاً نظريَّة اجتماعيَّة. وبالتالي فإنَّنا قد لا نجد أبداً معرفة منعزلة عن الواقع الاجتماعي؛ «لأنَّ المعرفة بطبيعتها اجتماعيَّة، وهي في الأساس (بناء اجتماعي)».[73] وعلى هذا صارت المعرفة اجتماعيَّة مبنيَّة على تواصل وتبادل الخبرات والمعارف المكتسبة بين الأفراد، ممَّا يساهم دائماً في تطوُّر وبلورة نوع معرفي جديد.

72. السكري (عادل)، نظريَّة المعرفة من سماء الفلسفة إلى أرض المدرسة، تقديم حامد عمَّار، الطبعة الأولى 1999، آفاق تربويَّة متجددة، الدار المصريَّة اللبنانيَّة، ص 68.

73. المرجع السابق، الصفحة 71.

تتخذ وظيفة المعرفة في إحدى أشكالها المهمَّة دور إعادة هيكلة الشكل المعرفي المبعثر إلى شكل كلّي منسجم، من هنا اتخذت المعرفة ماهيتها انطلاقاً من الطبيعة الاجتماعيَّة لنشاط الناس العملي، ممَّا يسمح لنا بالقول بإمكان المعرفة بوصفها واقعة اجتماعيَّة.[74] ولمَّا كانت هذه النظريَّة تتجاوز الاقتصار على حدود «الذات العارفة والموضوع المعروف»، لاعتبار أنَّ الذات مكوّن اجتماعي يخضع لشروط مجتمعيَّة، حيث تدرك موضوعها وتعرفه في إطار المجتمع[75]، لزم ضرورة الانفتاح وفسح المجال أمام مكوّن معرفي هو **علم اجتماع المعرفة** sociology of knowledge لكونه علماً يختصُّ بدراسة المعرفة من حيث هي ظاهرة اجتماعيَّة، فهو يهتمُّ بدراسة «الطبيعة الاجتماعيَّة للمعرفة باعتبارها (حقيقة رئيسة)، ويؤكّد اعتماد الإيديولوجيات وغيرها من أشكال الفكر الإنساني، التي تظهر في وقت معيَّن ومكان محدَّد، على بناء وتكوين المجتمع الذي تتطوَّر فيه هذه الأفكار».[76] وبالتالي فالمهمَّة والدور الذي يحتله هذا النمط القيمي من المعرفة كعلم يكمن في كشف ارتباط المعرفة بالوجود الاجتماعي.[77]

من ثمَّة كان من الخطأ في القول إنَّه ليس هناك مرجعيَّة خارج اللغة، وفي اللحظة نفسها يسبق الباحث العبارة بقول في «الحدوث» من شأنه أن يدفع أيَّ منطقي أو عاقل نبيه إلى ملاحظة التناقض في الكلام المعني هنا. فالحدوث يعني أنَّ العدم سابق له أو يفيد إلى أصل منفصل عن الأصل الأوَّل. وبالتالي، في كلا الاحتمالين تكون عبارة «لا مجال للحديث عن مرجعيَّة خارج اللغة وألعابها» ضرب من ضروب أشباح العقل؛ لأنَّنا نسوق المعنى بغير المعنى الأصيل، فنأخذ سياقاً ونقول به ما نريد.

إنَّ هذا كلام فضفاض، وهو يناقض ذاته، فمتى كانت اللغة حادثة لتكون المركز في تشكيل اعتقادنا؟ أوليس الحقّ أنَّ اعتقادنا هو ما يضفي المعنى على اللغة، فيحمل المعنى بذلك على الاعتقاد؟ على سبيل المثال: أنا أحبُّ وأكره وأرغب، أوليس اعتقادي في الحبّ والكره والرغبة النابع عن إرادتي الحرَّة هو ما يضفي المعنى على لغتي لتترجم كسلوك وفعل حادث؟ وهذا السلوك أو الفعل هو بطبيعته نتيجة لخلفيتي الاعتقاديَّة، وبالتالي، صار للغتي معيار صدقي من خلال مطابقة الواقع بما في الأذهان «إلى» ما في الأعيان، ولهذا نجد دافيدسون جعل المعنى هو الذي يجمع بين الحقيقة والمعرفة.[78]

من هنا نجد أنَّ إحالة الباحث إلى الخاصيَّة الاستعماليَّة وخاصيَّة الفعاليَّة ما هي إلا دعاوى، نقلاً عن ريتشارد رورتي لدعم فكرة «الحدوث» بدلاً من أنَّه كان عليه بلورة نصوص رورتي في قالب أطروحة تسترعي القيمة العلميَّة للفحص وعدم عرضها كمسلَّمات بدهيَّة.

74. المرجع السابق، الصفحة 72.

75. المرجع السابق، الصفحة 73.

76. المرجع السابق، الصفحة 73.

77. المرجع السابق، الصفحة 73.

78. مشروحي (الذهبي)، أطروحة دكتوراه تحت عنوان: النزعة البراغماتيَّة الجديدة عند رورتي، تحت إشراف محمد سبيلا، جامعة محمَّد الخامس، كليَّة الآداب والعلوم الإنسانيَّة، الرباط، شعبة الفلسفة وعلم الاجتماع وعلم النفس، وحدة الحداثة وقضايا الإنسان المعاصر، سنة 2004، ص 170.

على سبيل الختام

وفي الختام لا يسعني إلا أن أقول، بحريَّة رأي، إنَّ بعض اللسانيّين المعاصرين في تناولهم لقضيَّة البراغماتيَّة، كان لديهم مشكل الانتماء والهويَّة، لذلك هم أقرب إلى اعتبارهم أقزاماً يؤرّخون للحداثة، أو بالأحرى ضرب من ضروب أوهام المثقفين.

فاللساني المتطفّل على هذا الميدان اللغوي البحت، قد لا يتحصل له إدراك لتمييز وجه الاختلاف بين البراغماتيَّة في سياقها الفلسفي (مع وليام جيمس وجون ديوي ...)، والسياق التداولي اللساني (مع كلٍّ من سورل وأوستين وغرايس ...). ومن ثمَّ كان هذا سبباً لكثير من المغالطات الشبيهة بالتعقيبات، كالتي تُتداوَل على مواقع التواصل الاجتماعي وأقلّ من ذلك، التي تسيء إلى صريح المنقول عن البراغماتيَّة في أصلها مع سقراط، ثم شكلها المتقدّم مع وليام جيمس. من ثمَّة كان ضرب هؤلاء المتطفلين على المعرفة ألا يفرقوا بين المجالين، فيحدث لهم خلط في الأهداف والغايات التي دعت إلى ضرورة التحدُّث عن هذا المجال المعرفي الفلسفي، والمفاهيم والقضايا التي ساهمت في بروز هذا النشاط العقلي وأسَّست له، وبالتالي لم تكن للبراغماتيَّة أبداً علاقة بالمنفعة الاقتصاديَّة كما هو مفهوم لدى الكثيرين اليوم، بقدر ما هي بحث في جوهر معاناة الإنسان، إنَّها بحث في أنساق الحياة وأشكالها، وبحث في الخير لهذا الإنسان المؤشكل عليه أمره، من ثمَّة نهجت «البراغماتيَّة» سبيل التوحيد بين مختلف التيارات من منطلق الأخذ بما فيه خير للإنسانيَّة.

فلا عجب إذن أن نجد وليام جيمس ينفي الكلمة «دين» عن أيّ مبدأ واحد أو جوهر.[79] الاسم هو كلمة موحِدة لعدد كبير من التجارب المختلفة، والوظيفة الملائمة لفحص الدّين يجب أن تراعي أمثلة معيَّنة لكلّ مظاهر التجارب الإنسانيَّة المختلفة. بالنسبة إليه، كلُّ أسئلة القيم يجب أن تتلاءم مع نصّ التجربة. وبالتجربة هو لا يعني شيئاً متضمّناً (تجربة ما). بل إنَّه يعني بالتجارب النتائج الفعَّالة التي تحدث في حياة الأفراد بشكل خاص. وبهذا المعنى تكون التجربة، كما يعتبرها عند البراغماتيين الأمريكيين، هي ردَّة فعل فلسفيَّة تجاه ظواهر من قلب الحداثة. المناهج الفكريَّة لوليام جيمس وجون ديوي ارتكزت على إعطاء المكوّنات الشخصيَّة والثقافيَّة لسيرورة الحياة تأثيراً في وقوع العلة، على عكس النظرة الماديَّة المرتكزة على علوم الطبيعة، حيث تشرح العالم على أنَّه منظومة من الأسباب والحوادث (العلة والمعلول) يمكن تفسيرها بشكل مباشر.[80] فالعلماء يفسّرون أنَّ لكل سبب علة مباشرة يمكن تفسيرها بشكل مادي استناداً على علوم الطبيعة، على عكس وليام جيمس وجون ديوي اللذين يريان أنَّ للأسباب أوجهاً ومكوّنات شخصيَّة وثقافيَّة تدخل أيضاً إلى جانب الأسباب الطبيعيَّة في وقوع العلة.

79. Cholbhavat Borirakkucharoen, the Nature of Religious Experience in the Philosophy of William James, ABAC Journal Vol. *23*, No.*2 (*May - August, *2003)*, pp. 43.

80. Jaeger Friedrich, Réinterprétations de la religion et theories, Religion et libéralisme en Europe et aux Etars-Unis: étude comparée, traduction de Jean-Marc Tétaz et Christian Indermuhle, Editions LABOR ET FIDES 2006, page 73.

من هنا يحيل وليام جيمس إلى البعد الموضوعي للحقيقة، الذي يدخل في تكوين التجارب الشخصيَّة للأفراد. فمبدؤه من التجربة -تماماً كما هو حاصل مع جون ديوي- يستهدف التوتر الحاصل بين الشخص والشيء؛ التناقض بين مكوّنات الحريَّة الشخصيَّة والتفسير الثقافي لأساليب الحياة الإنسانيَّة من جهة، ومن جهة أخرى الظروف الماديَّة البحتة لهذه المكونات، ثمَّ الشروط التي تستلزم «التفسير السببي». ورغم هذا الوجه المشترك حول مبدأ التجربة من وجهة نظر براغماتيَّة، إلا أنَّه يبقى من الواجب الانتباه إلى الفوارق التي بين الرجلين، جيمس وديوي، بهدف الطرح مجدَّداً لإشكاليَّة إمكانيَّات وظروف التأمُّل الذي يجمع بين سيرورة الحياة الإنسانيَّة وثقافة الحداثة، على أساس اعتبار أنَّهما يسعيان إلى محاولة إعادة تفسير العلاقة الموجودة بين الحياة الإنسانيَّة وثقافة الحداثة من خلال إعادة طرح واستشكال جديدين لظروف نشأة هذه العلاقة التي جمعت بين هذين المتوازيين.

إنَّنا لا ننكر أهميَّة أيّ مبحث من المباحث التي بلغها العقل البشري وأسَّسها كعلم لخدمة البشريَّة، فنحن نعلم جيداً أنَّ الحديث سيفضي في الأخير بشكل أو بآخر إلى مقابلة إنسان غير راضٍ عن وجوده، وعدم رضاه هذا سيؤدي به إلى النقد، والنقد هو مفتاح لفهم ما وقع على مستوى الإنسانيَّة، وبالتالي يصبح النقد هو إعادة النظر في طريقة التفكير، وطريقة التفكير تقتضي النظر في اللغة، ثمَّ في كلّ القوالب المنطقيَّة التي نفكر بها.

أجل، إنَّ تعاضد المنطق في مجال الدلالة واللسانيَّات كشرح لكيفيَّة إنتاج المضمون والفلسفة، التي يهمُّنا فيها النقد المؤسَّس على التحليل، هو ما سيمكننا من التفكير بطريقة صائبة، وعندما تتعاضد هذه المعارف الثلاث، آنذاك يمكننا إعادة النظر في ما أنتجه الجنس البشري بخصوص أنَّ عمليَّة التفكير للحضارة يجب أن تُراجَع. وبالتالي يجب أن نحدث تركيباً بينها؛ لننتج فكرة مطبقة (هيغل)، أو أنَّ النقد سيكون هو نهاية المطاف (كانط).

لائحة المراجع

- Charles Morris, Du pragmatisme à la pragmatique: In Langages, 19e année, n°77, Normand Claudine, Trollez M.-F, 1985.
- Yaël kreplak Cécile Lavergne, Les pragmatiques à l'épreuve du pragmatisme. Esquisse d'un « air de famille », Tracés. Revue de Sciences humaines, 15 (2008).
- Ruggiero (Vincent Ryan), Beyound Feelings, a guide to critical thinking, Ninth Edition, published by McGraw-Hill, New York 2012.
- Jeffrey, Omar Usman, defining religion: the struggle to define religion under the first amendment and the contributions and insights of other disciplines of study including theology, psychology, sociology, the arts, and anthropology, harvard law school, 2006.
- Jaeger Friedrich, Réinterprétations de la religion et theories, Religion et libéralisme en Europe et aux Etars-Unis: étude comparée, traduction de Jean-Marc Tétaz et Christian Indermuhle, Editions LABOR ET FIDES 2006.
- Cholbhavat Borirakkucharoen, the Nature of Religious Experience in the Philosophy of William James, ABAC Journal Vol. *23*, No.*2 (*May - August, *2003)*, pp. 35 – 45.
- Mats BERGMAN, the new Wave of Pragmatism in Communication Studies, Nordicom Review 29 (2008) 2, pp. 135-153.
- https: //ar.wikipedia.org/wiki/تجريبية-راديكالية

- جيمس (وليام)، البراجماتيَّة، ترجمة محمد علي العريان، تقديم زكي نجيب محمود، القاهرة. المركز القومي للترجمة، سنة 2008.
- مشروحي (الذهبي)، أطروحة دكتوراه تحت عنوان: النزعة البراغماتيَّة الجديدة عند رورتي، تحت إشراف محمد سبيلا، جامعة محمَّد الخامس، كليَّة الآداب والعلوم الإنسانيَّة، الرباط، شعبة الفلسفة وعلم الاجتماع وعلم النفس، وحدة الحداثة وقضايا الإنسان المعاصر، سنة 2004.
- السكَّري (عادل)، نظريَّة المعرفة من سماء الفلسفة إلى أرض المدرسة، تقديم حامد عمار، ط1، آفاق تربويَّة متجدّدة، الدار المصريَّة اللبنانيَّة، سنة 1999.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2017

All rights reserved © 2017